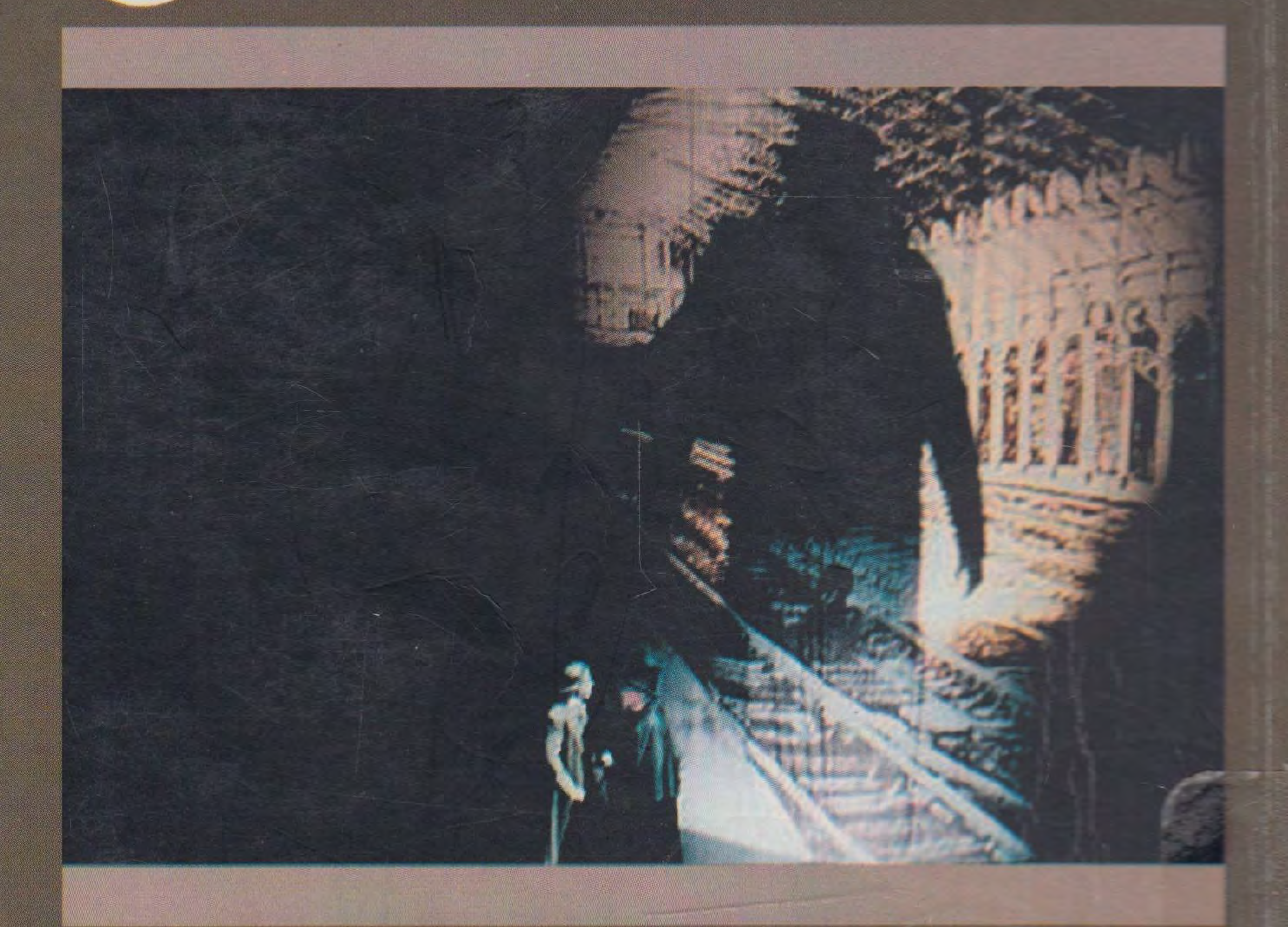
أشهر القصص اللصوصية

أرسين لوبين

7



الشبح القاتل

موريس لبلان

مكتبة معروف

YOUSRA

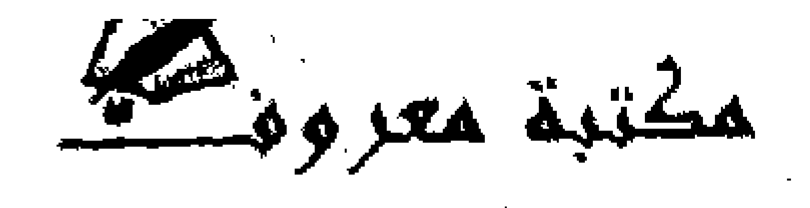
أشهر القصص اللصوصية

أرسين لوبين

الشبح القاتل

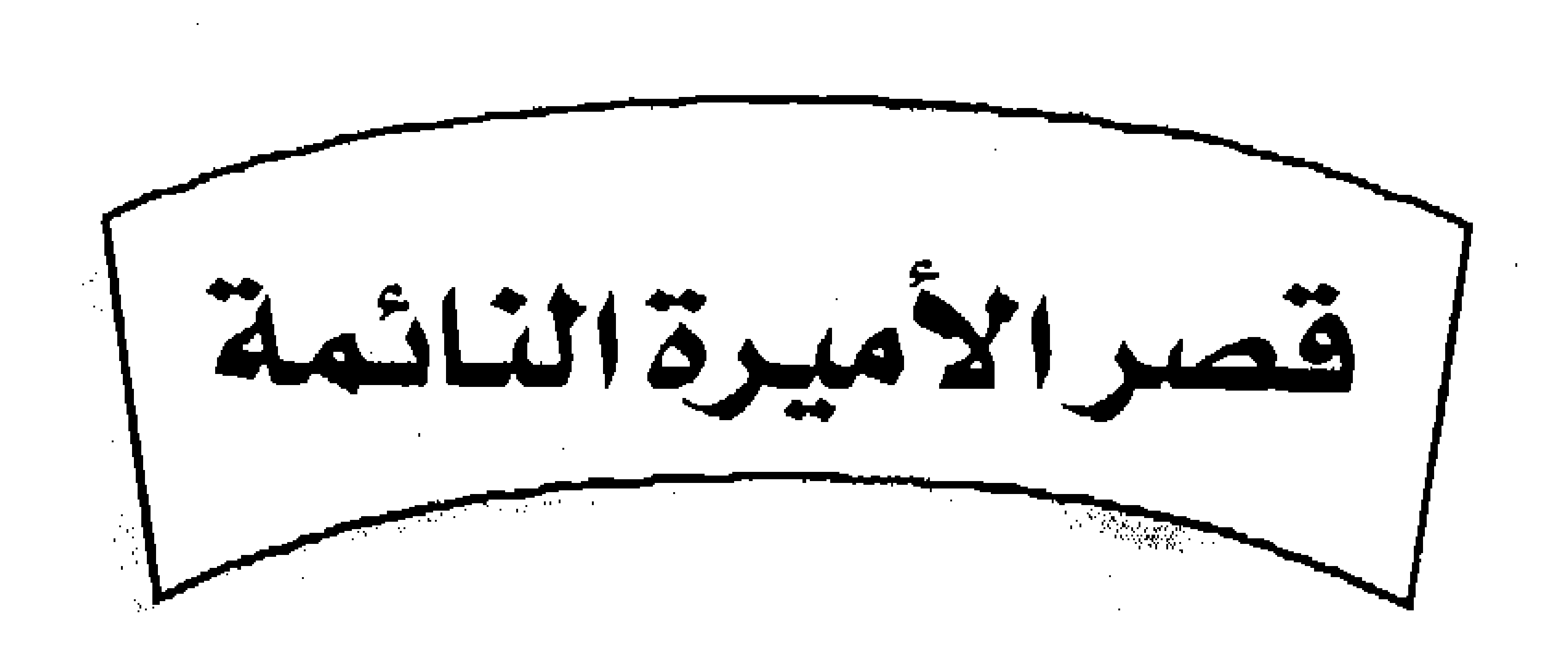
ترجمة

محمد عبد المنعم جلال


مكتبة معروف

مكتبة معروف

الإسكندرية ـ ٤٨١٠٨٢٨ / ٤٨٤٦٤١٠ فاكس ـ ٤٨٦٠٠٨٩ القاهرة ـ ٠٢٢ ٤٠٣٧٧٩٢
ص . ب ٣٧٠ الإسكندرية
E- mail : maarouf 2004 @ hotmail . com



عرف راوول دابنياك وهو على قمة المرتفع الممتد فوق الأسطح الداكنة لبيو يونرفيل فكفت يده عن توترها فوق عجلة القيادة . كان الريف يترامى أمامه فى هدوء ، ورأى على يمينه ، خلال هذه الانفراجات نهر السين ، وعلى يساره شاطئاً صخرياً مرتفعاً راح يردد صوت محرك سيارته ذات الأربعين حصاناً .. أربع ساعات وهو يطوى الأرض منذ أن غادر باريس ، انفجرت أثناءها إحدى عجلاته. وماهى إلا لحظة حتى امتلأت شوارع البلدة الهادئة بالضجيج ، وانعطفت السيارة إلى ممر جانبى وراحت تتأرجح فوق أرض صلبة . وأطفأ راوول مصابيحه وانطلق بضعة أمتار فى طريق تحفه الأشجار ثم أوقف سيارته .

وتخلص فى حركات سريعة من نظارته وقلنسوته ووشاحه ثم هبط إلى الأرض وهو يقول :

- آه .. لاريب أننى فى حالة يرثى لها .

ومس ياقته وشد جاكتته وتثاءب .. وكان القمر هلالاً يلقى بنوره الباهت على النباتات والأعشاب . وعاد راوول يقول :

- والآن ، إلى الفصل الأول .

وانطلق فى درب يمتد عبر رابية من الحجر الجيرى يقوم على قمتها هيكل برج متهدم تحت سماء تنتثر فيها النجوم، وكلما تقدم فى

طريقه كلما امتد نهر السين أمامه، براقا يكاد الضباب يكسوه .. وفى أعلى الطريق ، فى الساحل المواجه ، بضعة أنوار متراقصة تشير إلى مدينة تانكارفيل، وكان ميناء هونفلور يقع هناك، خلف البرج المتهدم .. وراح راوول يرتقى الطريق فى غير جهد أو مشقة ، وبلغ سور القصر الذى يكاد ينهار وتسلل إلى فناء داخلى وأشعل قداحته مرتين .. وظهر فى جوف الظلام الذى يكسد أسفل البرج نور خافت أضاء مرتين .. وانتظر راوول ولم يلبث أن ظهر بجواره شبح يقول :

- أهذا أنت أيها الزعيم ؟

- بلحمه وشحمه .

- كان يجب أن تأتى مساء أمس .

- أخرتنى بعض المشاغل .. مبارزة وإفطار فى سفارة انجلترا وتنظيف السيارة وتشحيمها .. ضرورات النبالة ياعزيزى .

أمسك راوول بذراع صاحبه وقال فى صوت صارم :

- وتملكك الخوف أثناء ذلك أيها الأحمق ! قلت لنفسك إن الزعيم يتردد وإنه يجد المسألة أشد خطورة مما يظن وأنه تراجع اعترف أن ذلك ما كان ليضيرك .. يالك من شجاع !

- أؤكد لك أيها الزعيم ..

- طبعاً ، طبعاً ياصغيرى برونو .. أنت لم ترتعد قط لحظة واحدة .. لم يخطر لك أبداً أن تقول لنفسك إن الزعيم يتمادى ، وإن البوليس سوف يلقى القبض عليه ذات يوم وعندئذ تنتهى أيامنا فى زنزانة ضيقة رطبة .

وضحك ضحكة فتية رنانة سرت عدواها إلى برونو فابتسم بدوره وقد أخجلته تلك الطاقة العجيبة التى تنبعث من راوول دابنياك وتمتم

يقول : هذا صحيح .. أحياناً يتسرب الشك إلى قلبى .

أطبقت يد راوول على ذراعه كفخ من الصلب وقال :

- إننى أمنعك من الشك .. حتى إذا اختفيت .. يوما أو شهرا أو سنة .. فمهما يحدث فسوف أكون هنا بعد ذلك .. هل تسمع ؟ سوف أكون بجوارك .. لايمكن أن يقع لك شئ .. هيا ، تقدم ياصغيرى وقم بواجبات صاحب البيت .. تقدمنى يامولاى .

امتثل برونو وقد غلبته لهجة راوول الساخرة ومضى نحو آخر الفناء وهو يقول :

- احترس من الباب أيها الزعيم .. يجب أن تخفض رأسك والآن ، أمامنا إحدى وتسعون درجة .

وأضاء مصباحا كهربيا وأرسل شعاعه نحو الدرجات الحجرية القديمة .. وقال راوول :

- آه إن المكان جميل .. وإن كان بسيطا بعض الشئ .

وارتقى الدرجات فى خفة ورشاقة أمام برونو الذى تسارعت أنفاسه .

- تقريرك الآن ياصغيرى .. كم رجلاً بالقصر ؟

- ثلاثة .. وأحدهم يبدو مسنا جدا .. لعله الحارس أو كبير الخدم .

- والآخران .

- فى عنفوان الشباب .. صاحب القصر وسائقه.

- ومن غيرهم ؟

- لاتتعجلنى هكذا أيها الزعيم .. لا أدرى مم صنعت ساقاك، فإننى لم أعد أستطيع أن أتبعك .. هناك الطاهية ، وهى بين الأربعين

الخمسين من العمر ، وطفلتان .. أعنى فتاة وصبية .. الأولى فى السابعة عشرة من عمرها والثانية فى العاشرة تقريباً .

- أهما أختان ؟ ابنتا صاحب القصر ؟

- أوه ، كلا ، كلا طبعا .. الفتاة ، نعم .. أما الصبية فأعتقد أنها قريبة للعجوز لأنها تقضى كل وقتها معه .

- وزوجة صاحب القصر ؟

- ليست هناك زوجة .. أظن أنه أرمل .

- وأين يرقد الجميع ؟

- في الطابق الأول .. صاحب القصر والفتاة فى الجناح الأوسط .. والسائق والطاهية ، وهما زوجان على ما أعتقد ، فى الجناح الأيسر .. أما العجوز والصبية ففى كوخ صغير منعزل .. وقال برونو مازحاً :

- هذا هو مقر قيادتى العامة .

وأضاء الأغطية الملقاة فوق الأرض وبقايا وجبة من الطعام ، وقال وهو يفخم فى صوته كما يفعل المرشد :

- والآن إلى الاستكشاف .

أخذ راوول المصباح الكهربى من يده واطفأه وهو يقول :

- مهلاً ياصغيرى .. لا أنوار فى غير مناسباتها .. هل معك المنظار الصغير ؟

- هاهو .

وبدأ راوول دابنياك الاستكشاف ، وكان قصر يونرفيل يقع على يمينه ، وتبين على الفور هيئته الضخمة وأسطحه المعقدة التى ينعكس عليها ضوء القمر ويجعلها تبدو بلون الفضة .. وألقى نظرة طويلة عبر

المنظار ثم قال يسأل :

ـ وما الذى يلمح هناك ، على يسار الباب الحديدى ؟

أجاب برونو : إنها البئر .. هناك بئر فى ثخانة الجدار ، ولاريب أنك ترى الدلو فوق الحلقة ؟

ـ وهل هناك كلاب ؟

ـ بولدوج واحد يرافق الفتاة دائماً .

ـ أيطلقونه أثناء الليل ؟

ـ كلا .

ـ هل أنت واثق ؟

ـ ما كنت إلا لأراه . أؤكد لك أنه يبيت فى البيت.

ولان صوته بطريقة تكاد لاتلحظ فقال راوول :

ـ آه .. أرى أنك مازلت خائفاً .. ما الذى تخشاه ؟

ـ لاشئ .. غاية ما فى الأمر أننى أوثر أن نفرغ الليلة .. عندما يدور بذهنى أننا قد نضطر لإعادة الكرة .

ـ يالك من جبان .. لو أننى تركتك تفعل فإنك تستولى على أى شئ كيفما اتفق ، ودون أن تفكر فى الاختيار.. تجمع الفضيات والمجوهرات ثم تبادر بالفرار كأى لص عادى عجبا! ولكن من تظنني؟ إننى من هواة جمع التحف والنفائس .. ومنذ ثلاثة أسابيع وأنا أدرس هذه العملية وأرسم الخطط وأضع النقاط الأخيرة .. بل إننى ذهبت إلى وزارة الفنون وتحريت كل شئ .. وقد علمت فى الوزارة أن هناك بعض الشبهات حول صحة بعض اللوحات .. فلوحة ناتييه مزيفة ، ولاريب فى ذلك.. والمكتب البديع الممهور بتوقيع برسييه فونتيه ما هو إلا تقليد متقن، فقد وقع فى يدى تقرير الخبير وهو تقرير دقيق

مرفق به رسم مفصل لأن الدولة أوشكت أن تشترى القصر هل تريد أن أخبرك أين توجد فاترينة النياشين والميداليات ؟ فى آخر المعرض .. ومجموعة الاختام ؟ فى وسط القاعة ، أمام لوحتى فراجونار ولاتور .. هكذا يجب أن يعمل كل من يتذوق الفن ويهوى جمع التحف والنفائس .

وعبر وجه راؤول المائل نحو وجه برونو عن جرأة هادئة تشوبها السخرية ، وأحاط رووال كتفى الشاب بذراعه وقال يخاطبه :

- اعلم ياصغيرى أن أرسين لوبين يختار وينتقى وأنه لايرضى ببضاعة لاتباع كما يفعل أصحاب الملايين الامريكيون .. إننى أتفقد المكان أولا ثم آخذ ما يروق لى فيما بعد .

وكان يبتسم فى هدوء وهو شديد الثقة من نفسه بحيث أن برونو هتف يقول :

- حسنا .. هيا بنا أيها الزعيم .

- مازال أمامنا متسع من الوقت ياصغيرى .. إذا آثرت الحياة الأخرى، وإذا اردت أن تكون الشاب الوسيم الذى يدفع الأرملة الثرية ويجمع التبرعات فى قداس الكنيسة سان هوبير فأنت وشأنك .

- كلا أيها الزعيم .. إنما كنت اعنى ...

- عندما تواتى الفرصة شابا مثلك لكى يكون جنتلمانا حقيقياً فله الحق فى أن يتردد .

- اؤكد لك أننى لا أتردد .

وعندئذ تمتم راوول فى قوة مكبوتة غمرت برونو كفيض من السعادة فقال :

- إذا كان الأمر كذلك فهلم بنا .

وهبطا درجات السلم مسرعين واجتازا ضربا من الأرض نبت فيها نوع من العشب النادر جففته الشمس .. وكانت السحب تمر من وقت لآخر وتغطيها بظلالها .

- أظن أن العجوز هو الذى يغلق الباب الحديدى ويضع المزاليج ؟

- أجل .

- وأظنه يقوم بعمله هذا بكل دقة ؟

- هو ؟ إنه لكفيل بأن يغلق الباب مرتين إذا استطاع ، وصدقنى إننى قضيت وقتاً طويلاً فى مراقبته .

- وهل يفد إلى القصر أناس كثيرون ؟

- لا أحد فيما عدا بعض الموردين .

- وأهل القصر ؟ هل يخرجون ؟

- سيد القصر، نعم .. فهو يخرج بانتظام فى سيارته مع سائقه أما الآخرون فلايتحركون تقريباً .

تابع الرجلان طريقهما فى صمت .. وكان برونو يفحص راوول خلسة .. وكان هذا الأخير يرتدى ثياب المدينة ويضع زهرة فى عروة جاكتته ويبدو أنه خرج فى التو من أحد فنادق حى سان جرمان .. وكانت هذه النزهة الليلية برفقة ذلك الشاب المتأنق شيئاً غريباً ومذهلاً وعجيباً بحيث أن برونو مر بيديه أمام عينيه .. كلا .. كان المنظر حقيقياً وكان قصر يونرفيل هناك، أمامهما، وقد تناثرت فوق أسطحه المداخن ودورات الهواء وواقيات الصواعق .. وقال راوول :

- إنه يرجع إلى عصر النهضة ، وهو قصر جميل ، ولكنى لا أحب كثيرا هذا الجناح الذى تدل هيئته على أنه بنى فى عصر لويس الثالث عشر .

وتقدما بمحاذاة الجدار الذى يفضى إلى الباب الحديدى العمومى واكتشفا البئر ، وهى بئر قديمة نحتت فى ثخانة السور بحيث كان يمكن استخدامها من الخارج ومن الداخل على السواء .. وكان هناك سياج حديدى يفصلها إلى جزئين ، ولم يتردد راوول ووثب فوق حلقة البئر ولمس قمة السياج باصبعه ، ثم وبخفة عجيبة ارتفع فى صمت واختفى فى الناحية الأخرى ، وصفير خافت نبه برونو أن الطريق خال ، وما هى إلا لحظات حتى كان الشاب قد اجتاز العقبة بدوره .

وهمس راوول : ألم تجد مشقة ما ؟

- كلا أيها الزعيم .

واستطاعا عندئذ أن يتبينا بصورة أفضل موضع المبانى ، ففى آخر فناء فسيح يقوم القصر نفسه وعلى جانبيه جناحان يمتدان حتى الباب الحديدى كضلعى مثلث .. أما ساحة الشرف ببلاطها الكبير اللامع فكانت أشبه بمستنقع هادئ .. وترك راوول كنف الحائط وخرج إلى النور فهمس برونو :

- سوف يروننا .

- وبعد ؟ .. ليس لدينا نوايا سيئة .. إننا قدمنا لمشاهدة مجموعة التحف كما يفعل السياح .

ومضى راوول نحو باب القصر ولكن برونو أسرع يقول :

- من الأوفق أن ندخل عن طريق المطبخ .

- عن طريق المطبخ ؟ كالبدال أو صبى الجزار؟ تأدب يابنى .. ارفع رأسك يابرونو.. لاتنس مركزك ولامركزى ، فأنت مع دابنياك .

وضحك تلك الضحكة الفتية التى طالما أثارت حيرة سامعيه وفرقع أصابعه فى غير اكتراث وارتقى الدرجات الأمامية للقصر.. ولمست

يداه القفل لحظة عابرة ثم قال :

ـ ليس هناك مانع .

وفى اللحظة التالية كانا فى الردهة ، وأعاد راوول أداته إلى جيبه وهمس قائلاً :

ـ أمسك بكتفى .

وفى بطء تقدما الواحد بعد الآخر فى الظلام وسط صمت مطبق .. بل إنهما لم يسمعا عمل الديدان الغامض فى خشب الجدران القديم .. كان كل شئ فى البيت ينام نوما عميقا .. وتوقف راوول ومال فوق أذن برونو وقال :

ـ احترس .. هذا هو السلم .

ووضع قدمه على أول درجة وأحس بأنها تلين قليلاً ، وفجأة ومن مسافة بدت له بعيدا جدا ارتفع رنين جرس راح يدوى فى إصرار .. وقال راوول :

ـ اللعنة ! جرس إنذار !

وراحا يصغيان وقد تجمدا فى مكانهما .. واستمر الجرس ، فوق يدوى دويه المكتوم ، أشبه برنين جرس منبه صغير .

وتمتم برونو متلعثما : فلننصرف !

ـ اسكت أيه الغبى .

راح ذهن راوول يعمل فى سرعة مدهشة .. وأخذ يفكر وقد توترت أعصابه وضم قبضته فى حين استمر الجرس فى دويه الصارخ عبر غرف القصر الصامتة .

وعاد برونو يقول : فلننصرف .

قال راوول فى لهجة جافة : أتريد أن تهرب كالأرنب ؟

ـ ولكن .. إنهم سوف يأتون .

ـ لن يأتوا فورا فهم أكثر منك خوفاً وذعراً .. وقبل أن يستقر منهم العزم وأضاء راوول مصباحه الكهربى وسلط شعاعه نحو باب الردهة ، وقال :

ـ انتظر على عتبة الباب .. عتبة الباب ، مفهوم ؟ لا أحد يستطيع أن يراك من فوق .. وعند أول سحابة ، عليك أن تتسلل بطول الحائط حتى البئر حيث تقوم بالمراقبة .. وإذا رأيت أى شئ غير عادى فقلد ما تريد من الأصوات ثم بادر بالفرار .

ـ صوت البومة ؟

ـ إذا شئت . وسألحق بك عند البرج .

ـ وأنت أيها الزعيم ؟ والكلب ؟ سأتكفل به .. امض وأسرع .

وفى بضع خطوات سريعة بلغ برونو آخر الردهة .. وأطفأ راوول مصباحه وكان جرس الإنذار لايزال يصلصل فى إصرار وبدون توقف ، ولكن لم يتحرك شئ ولم ينبح الكلب .. ولو أن أحداً ما سار فى الطابق الأول لطقطقت الأرضية الخشبية القديمة دون ريب .. وعلى كل حال لو أن سيد القصر صحا من نومه فجأة لاضاء النور كان يجب منطقياً أن يحدث شئ ما .. أو أى صوت .. وأن لايستمر هذا الصمت المخيف الذى يزيد فى رهبته صليل الجرس المستمر .

ارتقى راوول السلم وهو يتوخى الحذر الشديد .. أين الكلب ؟ ألن يهجم عليه فجأة وينشب أظافره فى عنقه ؟ وأى فخ منصوب فى غرف الطابق الأول التى يملؤها الجرس برنينه المتتابع الذى لاينقطع ؟ وجفف راوول وجهه .. كان من الجنون أن يستمر فى صعوده ، ومع

ذلك فقد استمر، محدودب الكتفين متوقعاً فى كل لحظة أن يتلقى رصاصة تنفجر فى وجهه .. والتقت يداه بباب ثم بآخر .. كانت البسطة كبيرة ممتدة والاستكشاف الأعمى لاينتهى .

وتمتم راوول يحدث نفسه : هيا يا ماركيز ، واجه العدو والابتسامة على شفتيك .

وأضاء مصباحه الكهربى من جديد ، وردد نوره فى كل الأرجاء ، كانت البسطة مقفرة .. وشيئاً فشيئاً استولى عليه غضب بارد .. كان الجرس لا يزال فى رأسه وفى أعصابه .. وسار وهو يضرب الأرض بكعبيه نحو باب الغرفة التى ينبعث منها رنين الجرس وفتحه وكشف نور المصباح فرشا ضخماً وامتد حتى الوسادة وتوقف على وجه جامد شاحب .. وتمتم راوول :

يا للشيطان ! .. إن العميل ليس وسيما .

كان الرجل أصلع ، له حاجبان كثيفان شقراوان يكادان يخفيان عينيه المطبقتين ويكسبانه سمة غريبة قاسية .. وتقدم راوول منه وقال :

ـ هل تسمح أيها الأمير ؟

ورفع الغطاء ، كاشفا عن صدر مشعر، وفجأة انفجر ضاحكا حتى كاد أن يختنق ، وتحرر من توتر أعصابه مرة واحدة وتمتم يقول وهو يضغط على مفتاح الاباجورة التى بجوار الفراش :

ـ التمس معذرتك ، واسمح لى أن أقدم نفسى: راوول دابنياك ، من نبلاء جسكونيا .. ألاتعرفه ؟ وأرسين لوبين ، هل تعرفه ؟ جرس الإنذار هذا مزعج ، أليس كذلك ؟ لعلنا نستطيع اسكاته.. كلا .. كلا ، لاتزعج نفسك أيها الصديق العزيز .. إن أجراس الإنذار ليست بغريبة على .. أرأيت ؟ هذا أفضل .. إذن فأنت ترفض أن تستيقظ لكى لا

تضايق هذا العزيز لوبين .

وإذا توقف رنين الجرس دوى صوته هو فى أرجاء الغرفة بطريقة غريبة .. وأسرع فخافت من صوته وهو يقول :

- ولكن إذا كنا لانصحو فلماذا هذا الجرس ؟ هذا أمر لايقره المنطق .

ورفع جفن النائم باصبعه ثم قال :

- مخدر .. فهمت الآن .. أنت إذن تعانى من أشجان خاصة وتريد أن تنسى كل شئ .

كان يهزل ولكن عينيه كانتا تتفحصان الغرفة وتلاحظان كل نقطة :- جلود الدب المفروشة على الأرض وقطع الأثاث الثمينة ومقياس الوقت المصنوع من الذهب الخالص فوق الطاولة ، وبجواره محفظة ضخمة من الجلد الروسى .. وفتح المحفظة ثم قال :

- كلا .. كلا .. لن أستغل ضيافتك لى .. ثم إن النقود لم تعد تهمنى .

ووجد بطاقات زيارة ورسائل وأوراق باسم هوبير فيرانج .. وقال وهو ينظر إلى الرجل الضخم ذى الحاجبين الشرسين :

- هذا جميل يا هوبير .. إن آل هوبير هم فى العادة قوم سلسلوا القيادة معتدلوا المزاج .

وأعاد المحفظة مكانها وفتح درج الطاولة واستطرد يقول وهو يخرج مسدسا ضخماً من طراز سميث ويسون له ماسورة قصيرة :

- وهم يرحبون بالضيوف ومرحون .. ولكنهم متكتمون فى بعض الأحيان ، ومن الأوفق أن تصادقهم بدلاً من أن تعاديهم .. ولكن ماذا تريد أن تفعل بهذه اللعبة بحق الشيطان يا صاحبى العزيز ؟ إن

موسم الصيد قد انتهى ، وغليوم [1] لم يعلن علينا الحرب بعد .

وأعاد المسدس إلى الدرج وتحول إلى الباب المفتوح وأصغى لحظة .

ـ ألم تسمع شيئاً ياهوبير ؟ خيل لى ..

واطفأ الاباجورة .. أكان برونو هو الذى أطلق هذه الصرخة ؟

وداخله إحساس شرس .. قاس بأنه ليس وحده فى القصر وأن زائرا آخر يتنقل فى مكان ما فى ظلمات الطرقات والغرف .. شخص حرص قبل أن يستكشف القصر على أن يخدر الجميع ، وابتداء من سيد القصر حتى الخدم .. وهمس يقول محدثاً نفسه :

ـ لا تتحرك .

وأسرع إلى البسطة وهو صامت كالشبح ، وانحنى فوق الدرابزين الحجرى ، ولكنه لم يسمع غير الدم الذى يدوى فى عروقه .. وأضاء مصباحه الكهربى من جديد وفتح غرفة أخرى وما كاد يفعل حتى ارتد إلى الوراء على الفور .. الكلب ! البولدوج !

ولكن الحيوان كان ممددا على صدره وخطمه بين قائمتيه ، ولم يبد أية حركة .. وانحنى راوول وحك رأسه ، بين الاذنين .

ـ كلب ذكى .. لقد عرف السيد ..

كانت الحدقة ثابتة ومتسعة تحت الجفن المحتقن شيئاً ما .. غلب المخدر الكلب وبقى فى وضع المترصد، كاشفا عن أسنانه .. واعتدل راؤول وسلط أشعة مصباحه على الجدران والسجادة والطاولة والفراش، وللمرة الثانية وقف مشدوها، وارتسمت على شفتيه ابتسامة كأنه لايصدق ما يراه .. وتقدم ثلاث خطوات ثم توقف

(١) غليوم الثانى .. تدور أحداث هذه الرواية فى يونية سنه ١٩١٤ .

مفتونا، فإن شعاع المصباح المائل إلى الزرقة أضاء وجها جميلا يجثم في جوف عش من الشعر الأشقر .. ما عمرها ؟ سبعة عشر عاماً ، استناداً إلى قول برونو ؟ ولكن من يراها لايعطيها أكثر من خمسة عشر عاماً على الأكثر .. الأهداب السمراء مسدلة بطريقة ساحرة وخيل لراوول أنها سترتفع فجأة وأن عينين واسعتين بنفسجيتين ستتفتحان تنظران إليه في مودة ورفق .. ذراع من ذراعيها البيضاوين أفلت وتدلى بطول الغطاء .. وبقي راوول منحنيا فوق الفراش ، مسحورا ومفتونا .. وتمتم يقول أخيراً :

- ماذا دهاك يالوبين .. أفي مثل سنك هذا ؟

كان يحاول أن يمزح .. بيد أن صوته كان يرتجف لفرط ما يعانيه من إنفعال .. هل يمكن بعد كل تلك المغامرات وكل تلك اللقاءات ؟

- ما هذا يالوبين ؟

أنت ترى تماماً أنها فتاة صغيرة .

وانبعث من الوسادة عطر جميل .. لم يتأمل راوول أبدا مثل هذا الجمال ومثل هذا الشباب الساحر الغض .. ومد يده في حياء وهو يقول :

- أيتها الفتاة المجهولة .. أنت جميلة .. لكم أود في هذه اللحظة أن أطوف بأحلامك .

وأردف يقول على الفور :

- إنك لخبيث ياماركيز .. أيمكنك أن تتصابى بشعرك الذي وخطه المشيب والغضون التي بدأت تظهر في ركني عينيك ؟

واستولى عليه الاضطراب ولم يستطع أن يحول بصره عن الوجه النضر .. ولم يتمالك نفسه أخيراً فانحنى قائلاً :

- على ركبتيك يالوبين ، أمام البراءة والفضيلة .. الحسناء والوحش .

وأخذ يد الفتاة ورفعها إلى شفتيه ثم أطفأ مصباحه وارتد فى هدوء وخرج من الغرفة .

- لو ألتقى بالوحش الذى سمح لنفسه ...

لأنه لم يكن هناك أى مجال للشك ، فهناك رجل آخر فى القصر.. رجل يهوى جمع التحف هو أيضاً .. ولكن كيف تمكن من خداع يقظة برونو ؟ آه ، البئر طبعاً ! إن فى مقدور أى شخص أن يلقى أثناء مرورة مخدرا فى الدلو .. ولاريب أن اللص فى المعرض الآن يختار وينتقى فى هدوء .

اجتاز راؤول الطرقة التى تمتد حتى البسطة وتؤدى إلى الجناح الأيمن ، وكان الضوء الباهت الذى يتسرب من خلال النوافذ المرتفعة يكفى لكى يوجه خطواته .. من أين دخل الرجل الغريب ؟ لاريب عن طريق قبو أو طريق المطبخ وسلم آخر مادام جرس الإنذار لم يرسل صليله ، ولاريب أنه يعرف كل مسالك القصر .

وكان المعرض يقع بعد الطرقة مباشرة ، وأضاء راوول الباب ذا المصراعين وأدار الاكرة فجأة ، وأصدر الباب صريرا بغيضاً .. وأدار نور المصباح فى أرجاء المعرض ، لكن لم يكن هناك أحد .

طاف راؤول بالقاعة الفسيحة ، ونسى على الفور قلقه واضطرابه ، فقد كان المعرض حافلا بالروائع والنفائس .. وتمتم يقول :

- ولكن لابد من ساعات لتقييم كل هذا .. فهذه اللوحة لمانتينا ، وهذه للارجيلير.. ولكن هذه اللوحة التى تمثل القديس جان بابتيست والمهورة .. بتوقيع دى فنسى تبدو لى مزيفة .. وإنى لأفهم الآن شكوك وزارة الفنون .

وسلط ضوء مصباحه على منضدة صغيرة وانعكس الضوء على تحف ثمينة :

ـ آه .. هاهى حقة القربان المشهورة .. وصندوق المخلفات الذى يرجع عهده إلى القرن الخامس عشر .

وفاض به احساسه بعظمته ، فقد دبر كل شئ وهو فى مسكنه بباريس ، دون أن يرى شيئاً ، وإنما مكتفياً بمعاينة الكتالوجات والبطاقات ، بيد أنه أصبح الآن سيد هذه النفائس .. مجرد حركة واحدة منه وتنتقل إلى مصائر جديدة جديرة بها .

وأجفل فجأة .. لايمكن أن يكون هناك أى خطأ هذه المرة .. كانت صرخة البومة حقاً .. وأرهف أذنيه وسمع للمرة الثانية الصرخة فى وضوح .. لاريب أن برونو ، وهو فى مكمنه ، قد رأى الزائر الخفى .

ألصق راوول وجهه بأقرب نافذة ، وأجفل وهو يرى المنظر المذهل الذى يطالعه من خلال الشرائح الخشبية لمصراعى النافذة .. رأى ثلاثة أشباح تجتاز الفناء فى طريقها إلى الباب الحديدى ، وكان يبدو أنهم قادمون من الجناح الأيسر للقصر ويتحركون بسرعة .. وكان أحدهم يمشى فى المقدمة أما الآخران فكانا يحملان حملا ثقيلا له هيئة رجل ملفوف فى غطاء .. وأحس راوول بالعرق يتصبب من كل كيانه .. اللعنة .. اللعنة ! بينما كان واقفا يتأمل مجموعة النفائس كان الآخرون يختطفون ..

وأسرع إلى الطرقة ودفع باب غرفة هوبير فيرانج .. كان سيد القصر يرقد فى هدوء .. الفتاة اذن ؟ كلا .. كانت راقدة هى الأخرى وذراعها لايزال على حالته .. من اذن ؟ خادم ؟

وهبط السلم مسرعا واجتاز الردهة.. كان الرجال الثلاثة يتسللون محتمين بظل الجدار بجوار الباب الحديدى .. وأغلق راوول الباب

خلفه .. ومرت سحابة لفت الفناء بظلمة مواتية ، فاندفع يجرى .

أما الرجال الثلاثة فبدلا من أن يخرجوا إلى الطريق راحوا يسيرون بمحاذاة الباب الحديدى، وتجاوزوا الجناح الأيمن ودلفوا إلى البستان ، وغابوا عن بصر راوول بعد ذلك مباشرة ، ولكن كان من السهل عليه الاهتداء إلى مكانهم من وقع خطواتهم .. وتجاوز زاوية القصر بدوره وتوجه نحو الأجراس والأشجار.. ورأى المجهولين الغامضين وهم يغادرون القصر من باب صغير .. واجتاز خلفهم دربا وتغلغل في دغل صغير يمتد حتى نهر السين .. ولم تكن هناك طرقات ممهدة فى تلك الناحية .. لم يكن هناك غير النهر .

- عسى ألا يهربوا فى قارب .

ازدادت الأرض انحدارا ، وفجأة انتهى الدغل ، وبدأت بعدها بقعة منحدرة من المستحيل عبورها دون أن ينكشف أمره .. وفكر راوول :

إنهم سيعبرون البحر .

وسمع صوت ارتطام مجداف بأرضية قارب ثم صرير سلسلة ، ورأى على سطح الماء البراق تموجات دوامة ، ولم يلبث القارب أن ابتعد عن الشاطئ . ورأى رجلاً يجدف بمحاذاة الشاطئ ، ضخم الجسم ، له رأس مربعة متداخلة بين كتفيه وآخر جالسا فى المقدمة ، وكان قصيرا ومشوها ، أما الثالث فكان منحنيا فى آخر القارب.

تنهد راوول فى ارتياح ، فإن القارب لم يدخل عرض البحر وإنما كان يتقدم بطول الساحل . وما كانت رؤيته لتثير دهشة أحد فى تلك الساعة فإن الصيادين الشرفاء يخرجون فى وقت مبكر فى شهر يونية ويمضون لأماكنهم المفضلة قبل الفجر .

وتقدم راوول فى طريق ضيق يتعرج خلال صخور الشاطئ.. وكان القارب يختفى من وقت لآخر خلف باقة من الخضرة أو مرتفع من

الأرض ، ولكنه كان لايلبث أن يظهر من جديد ، كتلة داكنة تظهر فى وضوح فوق حصيرة النهر الفضية وكان الطريق يزداد ارتفاعا ما بين لحظة وأخرى ، وكانت المسافة تزداد بين راوول والقارب .. وقال :

- لعلى أخطأت .. ربما كان يجب أن أتدخل دون انتظار .

وهناك ، كان القارب يقترب من ثلاث شجرات من أشجار الصفصاف الضخمة ، اختفى خلفها شيئاً فشيئاً .. وجرى راوول ثم وقف .

- آه . ولكن ماذا يفعلون ؟

ذلك أن القارب اختفى نهائياً ولم يظهر .

وتقدم بضع خطوات وهو بادى الحيرة ثم توقف من جديد .. وفجأة كتم سبة ، فقد برز القارب من خلف الأشجار فى بطء .. ولكنه كان شاغرا .. شاغرا تماما ، ولم يلبث أن توقف وقد شده حبل المرساة .

والرجال ؟ أين ذهبوا ؟ لم يكن فى مقدورهم الهبوط لأن الشاطئ كان عبارة عن صخور ملساء ، وجذور الأشجار نفسها تكمن فى قلب التل الذى يهيمن على السين من عل .. وترك راوول الدرب وتقدم حتى الهضبة التى تنحدر فيها الأرض حتى النهر .. ومن مكانه تبين فى وضوح من خلال الأغصان بريق الماء الشاحب ، وتمتم يقول :

- ما معنى هذا ؟ أنه لأشبه بعمل من أعمال الشيطان !

وحتى على افتراض إن أصحابنا الثلاثة الغامضين افلحوا فى الهبوط إلى الأرض فأين ذهبوا بعد ذلك ؟ إن الجرف المنحدر يمتد نحو مائة متر، وهو عار وأملس كاليد يكاد يلمع تحت نور القمر ولكن ماذا حدث للجسد ؟

لو انهم القوه فى النهر فما كان راوول إلا ليسمع صوت ارتطامه

بالماء .. إذن ؟ لايمكن أن يكون الرجال الثلاثة وضحيتهم إلا تحت الأشجار الثلاثة ، ومع ذلك فقد كان راوول واثقاً أن أغصانها لا تخفي أحداً .. وسار في بطء بجوار الهضبة مترددا لايدرى ماذا يفعل، فإنه إذا حاول أن يهبط حتى النهر فإنه يغامر بأن يعرض نفسه لهلاك أكيد ، ثم ، ما الجدوى فى أن يتأمل عن كثب هذا القارب الفارغ .

وجلس ليبعد بأكثر من خمسين مترا ، وكان يرى في وضوح انعكاس سلسلته وبركة صغيرة من الماء بين الألواح .

وتجمد دمه فجأة فقد ارتفع أنين بجواره .. وصرخة مكتومة .. فأدار رأسه ولكنه لم ير أحداً .. كانت الهضبة خاوية ، على بعد امتداد البصر.. لعلها الرياح ؟ كلا .. لم تكن هناك نسمة واحدة .

- ماذا دهاك ياماركيز ؟ إنك أصبحت تتخيل أشياء .

ولكن الصرخة عادت من جديد ، وكانت هذه المرة طويلة تدل على أن صاحبها يتألم كل الألم ، ووثب راوول على قدميه .. هل هذا ممكن ؟ لم يكن بالهضبة أحد على امتداد البصر .. لم تصدر الصرخة من الأشجار ، بل كانت أقرب بكثير .. بدا أنها تصدر من جوف الأرض .. صرخة رجل يتعذب تبعتها تمتمة أصوات .. وكان الانطباع قويا بحيث أن راوول دار حول نفسه مرة واحدة ، وأحس بخوف مستتر لم يستطع التغلب عليه .. وثارت أعصابه .. كان قد واجه خلال حياته الحافلة بالمغامرات أخطارا جمة ، ولكن لعله لم يجد نفسه أبدا فى مثل هذا الموقف الشديد الغرابة .

وسمع صاحب الصوت يقول متضرعا :

- كفى .. كفى .. النجدة . كان الصوت يبدو بعيدا ، يأتى من مسافة بعيدة عن الواقع، كصوت فى آخر خط تليفوني ويبدو قريبا فى

نفس الوقت كان يتولد فى الهواء بطريقة غامضة .. وصاح الصوت :

ـ النجدة .. كفى .. كفى .

امتقع لون راوول وضم قبضته ودار حول نفسه والعرق يتصبب من جبينه وارتفعت من جوف الأرض حشرجة رهيبة أعقبها على الفور صوت خشن قاس يقول :

ـ تكلم .. عجل وإلا ..

وعندئذ ومض الضوء فى ذهن راوول وقال :

ـ آه .. كيف لم أفطن إلى هذا ؟

وانحنى فوق المنحدر وراح يمشى على أربع تقريباً ، وبدأ يهبط فى بطء ؟

ـ هل حزمت أمرك ؟ ألا تريد أن تتكلم ؟

ـ كلا .

ـ هيا ياجريجوار .

صرخة حيوان خرجت من مجموعة من الصخور المنخفضة ، وقال راوول :

ـ حسن .. ها نحن قد وصلنا .

وأبعد بعض الأشواك بقدمه وجلس القرفصاء .. كانت هناك فتحة أضاءها بمصباحه الكهربى .. طبعاً . آه .. هذا هو الأمر اذن .. بئر التهوية .. لاريب أن هناك محجراً .. صاح الصوت متوسلاً :

ـ النجدة .

ـ يمكنك أن تصرخ كما تشاء .. كلا لاتريد أن تكلم ؟ .. أستمر ياجريجوار .

التصق راوول بالصخور ولم يعد يفقد كلمة واحدة من الاستجواب الرهيب الذى يدور تحته . وراحت الأحداث تتكون فى ذهنه فى منطق ودقة اثارا جزعه وملآه رعبا : أهل البيت مخدرون .. والعدو الخفى ينجز خطة موضوعة بكل عناية فاختطف الخادم .. وبلغ القارب مدخل سرداب مهجور .. الآن العذاب ، وغدا جثة تتعفن وتتكفل بها الجرذان .

وتأوه الصوت من جديد :

ـ كفى .. كفى .. سأتكلم .

أدخل راوول رأسه فى الفتحة والتصق بالتل ، وراح يتنفس هواء يشوبه العفن ، ولكن كانت هناك رائحة اخرى لم يلبث أن عرفها وهو يقشعر .. رائحة لحم يحترق.

ـ عجل وإلا انتهى أمرك .

ـ جرعة من الماء .

ـ إننى احذرك .. سوف نبدأ من جديد .. هيا ياجريجوار .

ومن جديد الصرخة المدوية المريعة . وراح راوول يسب ويلعن وانغرزت أظافره فى كفيه . وساد صمت ، ثم عاد الصوت الخشن يقول :

ـ أظن أنه أغمى عليه .. جريجوار .. الماء .

ارتد راوول إلى الخلف . لم يفت الأوان بعد ، فبقليل من الحظ واستنادا إلى عنصر المفاجأة .. رجل ضد ثلاثة .. كان ذلك يكاد يكون أمراً يسيرا .. وراح يثب فوق المنحدر ، ولم يكن دافعه إلي ذلك انتزاع السجين من عذابه فحسب ولكنه أدرك أن قصر يونرفيل لاشك يضم سرا غير تحفه ونفائسه .. سراً عظيماً .. وقد صمم أن يعرف

هذا السر.. وراح يجرى الآن فوق أرض صخرية تشرف على نهر السين ويكرر فى صوت خافت كما لو أن لارادته ما يكفى من القوة لكى يشق طريقه فى جوف الأرض حتى يصل إلى مخ المحتضر :

ـ قاوم ياصديقى .. قاوم خمس دقائق فحسب وسوف أنقذك .. تجلد فأنا لوبين .. قادم إليك .

كانت الأشجار الثلاثة الآن تحت قدميه تقريباً فتعلق بحافة الجرف وأحس بساقيه تلمسان أعلى الأغصان وتحسيس بأصابعه حافة الجرف وأحس بساقيه تلمسان أعلى الأغصان وفتح أصابعه وهوى خلال الأوراق ثم ارتفع على قدميه وتعلق لحظة وجيزة أبصر فيها جرفا ضيقاً موصلا وسلسلة القارب ، وعاد فهوى من جديد فى رفق فوق أرض لينة .. ولم يشعر بأية دهشة وهو يرى فتحة سرداب يمتد داخل الصخور .. وعلى ضوء مصباحه رأى قضبانا صدئة لعربة صغيرة من تلك العربات التى تستخدم فى المناجم ولاريب أن الزوارق كانت ترسو فى هذه الناحية فيما سبق وتوسق حمولتها مباشرة .. ولم يكن أمامه الآن إلا أن يستكشف المكان .

كانت أول مبادئ الحرص تنصحه بألا يستخدم مصباحه الكهربى فراح يتعثر فوق القضبان ، تلح عليه نفس الفكرة وتؤرقه "عساه ألا يتكلم" . وتوقف لكى يصغى .. لاشئ غير صمت بغيض لايطاق .. وخطر له عندئذ أن الأصوات فى جوف الأرض تنتشر بطريقة غريبة .. ولعله لايزال بعيداً عن الأشقياء الثلاثة .. مهما يكن فقد قضى الأمر وسيصل بعد فوات الأوان .. وتعثر فى عمود معدنى وأوشك أن يقع فأضاء مصباحه لمجرد لحظة خافتة يا للكارثة.. يا للكارثة ! كان أمامه طريق متفرع ، وكان من المستحيل أن يعرف .. وانعطف إلى اليمين ، وعلى الفور ، وفى جوف الليل ظهر ضوء صغير أحمر أخذ يكبر ..

وتقدم راوول فى بطء أكثر وضمن تفريعة ثانية .. ولم يلبث أن انضم للطريق الأيسر بعد دورة إلى الطريق الذى سبق أن اتخذه.. واخترقت القضبان قاعة كبيرة دائرية تشع منها انعكاسات صادرة من كومة من الحجر تنير أرجاءها فى غموض .. اختفى الجلادون ، ولاريب أنهم غادروا السرداب عبر الطريق الأيسر، ومروا براوول على غير علم منهم ، ولكنهم لم يحملوا ضحيتهم معهم .. كان الرجل راقدا بجوار النار وقدماه العاريتان نحو الجمر .. وسلط راوول نور مصباحه عليه كان رجلاً مسنا ، أبيض اللحية ، خشناً ، قوى الجسم ، له وجه نبيل وكان لايزال يتقلص من جراء التعذيب .. ورفعه راوول وأبعده عن النار .

ـ أنت لم تمت يا صاحبى ؟ لن تموت الآن بعد أن لقيت من أجلك كل هذه المشقة .. سوف تعود إلى الحياة برفق وتتحدث معى .

وألقى وهو يتكلم بأشعة مصباحه على قدمى الرجل المسكين ، وارتسمت على وجهه تكشيرة ولمس باصبعه اللحم المتورم وقال :

ـ آه ، ليس الأمر بالسوء كما ظننت .

وتلوى الرجل وسرت قشعريرة فى بدنه وتأوه قائلاً :

ـ الرحمة .. إننى قلت كل شئ .

وراح ينطق بكلمات غير مفهومة ، واضطر راوول أن يجثوا بجواره وأن يدنى أذنه من الشفتين الشاحبتين وقال :

ـ تكلم ماذا تقول ؟ القديس جان ؟ ماذا فعل هذا القديس ؟ إيه القديس جان يخلف يعقوب ؟ حسن .. هذا واضح تماما .. وبعد ؟ دراتنيان ؟ نعم ، اننى أسمع جيداً .. دارتنيان .. هدئى من روعك ياجدى .. دارتنيان يفوز بالمجد والثروة بحد السيف .. أهذا ماتريد أن تقول ؟ انتظر .. سأكرر .. القديس جان يخلف يعقوب .. دارتنيان

يفوز بالمجد والثروة بحد السيف .. هذا له معناه طبعاً .. هل أنت متأكد أنه ليس هناك أى شئ آخر ؟ شئ آخر يلقى قليلاً من الضوء رغم كل شئ .

وأمسك الشيخ من كتفيه وعيناه تلمعان بالانفعال وهزه فى رفق وقال :

- جهد آخر ياجدى .. أفرغ ما فى جعبتك فتنجو من الموت ورفع الشيخ نفسه فى جهد أخير وتوترت شفتاه وصاح راوول ؟ وماذا ؟ الدم .. هل قلت الدم ؟

خفض الشيخ حاجبيه وعاد فهوى على الأرض ، وتشبث راوول به وقد امتقع وجهه لفرط ما يشعر به من غضب مكبوت ، وقال :

- تكلم .. عجل وتكلم .. ولتمت بعد ذلك.. دم من ؟ هيا ياصاحبى ، تشبث بالحياة .. ماهذا الدم الذى تتكلم عنه ؟

ولكن الشيخ كف عن الحركة .. لن يبوح بالكلمة .. تلك الكلمة التى لاريب أنها مفتاح كل الباقى .. فقد رشده ووجهه الناصع البياض كالشمع أصبح بشعا وبغيضا.. وزمجر راوول :

- يا للمسكين .. ومع ذلك فقد بدأ يتكلم .. لو أنه لم يفقد الرشد لاعترف بكل شئ فى ثلاث ثوان .

وجفف جبين الرجل المجهول وكان يتفصد بالعرق .

ووقف بجوار الحجر الذى يتصاعد منه الدخان فى آخر السرداب المظلم على أتم راحته كما لو كان فى النادى الذى يختلف إليه عادة وراح يفحص الموقف بتلك الجرأة العجيبة وبتلك الدقة المدهشة التى تتيح له السيطرة على أشد المواقف صعوبة .. وابتسم فجأة كالطفل وقال :

- حسناً ياجدى .. سوف تنصرف الآن.. سأحملك معى إلى عيادتى .. وأعدك أنك سوف تعدو كالأرنب قبل خمسة عشر يوما .

ورفع الشيخ فوق ظهره وتمتم يقول : أنت ثقيل ياجدى .. ثقيل جداً .

وعاد من حيث أتى وهو يرزح تحت الحمل الثقيل الذى يحمله .. ووقف لحظة عند مدخل السرداب ليسترد أنفاسه.. لم يكن القارب فى موضعه تحت الأشجار ولاريب أن الرجال الثلاثة حسبوا أن ضحيتهم ماتت .. وزمجر راوول وجمع قواه وعاد وحمل حمله من جديد .

- مازال حياً .. إنه مبنى بالجير والرمل .. ياله من جيل .

وأخذ يمشى من جديد ، وبدأ النهار يطلع، ولكن الريف كان لايزال مقفرا ولاريب أن برونو فوق البرج يفحص بمنظاره كل ثنايا الطريق ، وسوف يسارع إلى النجدة بمجرد أن يراهما.. وبدأت ساقا راوول تترنحان لفرط التعب وفكر :

- إننى اخطئ إذ ارهق نفسى هكذا، فإننى لم أعد فى العشرين كما كنت .

وكانت المسافة بين المحجر والسيارة أكثر من كيلو مترين ، وقطع راوول ساعة فى عبورها ، ولحسن الحظ كان برنو .. برنو الأمين المخلص هناك .. وترك راوول يتهاوى فوق العشب فى حين بادره برنو يقول :

- لقد استبد بى القلق ورحت اتساءل ..

- حسناً .. اهتم به .. هل تعرفه ؟

قال برونو مضطرباً :

- إنه الشيخ الذى كان فى القصر .. أعنى الحارس .

- قل لى أظنك درست الطب قبل أن يسوء بك الحال ؟

- نعم ، ولكننى فشلت .. بل إن فشلى هذا كان السبب فى ..

- أعرف .. احمل الشيخ إلى العربة .

- هل ستمضى به إلى المستشفى ؟

- ماذا يقول ؟ إننى سأحتفظ به إن الرجل ثمين جداً .. هل رأيت قدمه .. أتظن أنهم يختطفون رجلاً ويعذبونه هكذا لأسباب تافهة .

- وماذا ستفعل به ؟

- أنا ؟ لاشئ .. أنت الذى ستفعل منه شيئاً .. ستعنى به وتشفيه فى أسرع وقت .. وسوف نرى بعد ذلك .. مفهوم يادكتور ؟

- ولكن ، أين تريد أن ...

- لاتشغل بالك بهذا ، فإن لى علاقاتى فى الحى .. ثم إنك تثير ضجرى بأسئلتك هذه .. هل فهمت ؟ إلى الأمام إذن .

ونهض ، نشيطا ، مستجماً ، يزخر بالقوة والحياة وبوثبة واحدة أخذ مكانه أمام عجلة القيادة وهو يقول :

- اجلس فى المؤخرة واحرص على صاحبنا جيدا فإننى على عجل من أمرى .

وبعد لحظات كانا يخترقان هونفلير ، وكانت لاتزال هاجعة .. وكان راوول يدندن ويدق بأصابعه على عجلة القيادة منغما لحنا .. القديس جان .. يعقوب .. دارتنيان .. القديس جان .

وانعطفت السيارة فى طريق تروفيل وهى تنتزع الحصى لفرط سرعتها .. القديس جان .. يعقوب .. القديس جان الذى يخلف يعقوب .. ودارتنيان الذى يفوز .. وفكر "لعمرى إن هذا العجوز إن هو إلا نوسترادا موسى .. من اذن ذلك المغفل الذى قال إن الحياة لاتساوى

أن يعيشها المرء .. ولكن الدم .. الدم ياإلهى! دم من ؟ "وكانت السياج التى تحف بجانبى الطريق تبدو كأنها تبتعد فجأة أثناء مرور السيارة بينها ثم تعود فتضيق من جديد "سوف يتكلم .. لابد أن يتكلم .. سيخبرنى أنا .. وعندما أعرف السر .."

وتوقف راوول أمام بيت صغير فى قلب الريف ، وكان هناك سور أبيض أمام حديقة جميلة .. كانت نوافذ البيت مغلقة ، فهبط ودفع باب السور وطرق الباب .. مرة . ثم مرتين .. وبدأ الانفعال يتملكه .

- حسناً .. ألاتفتحين ؟

وانفتحت نافذة فى الطابق الأول وارتفع صوت نسائى مهزوز يقول :

- من هناك ؟

- أنا البابا .

- ياإلهى .. أهذا أنت ؟ أنت ياصغيرى !

وماهى إلا لحظة حتى فتحت المرأة الباب .. وقال راوول :

- هذا أنا يافيكتوار .. أتيت لأحييك وأنا فى طريقى .

نظرات فيكتورا إليه وجلة .. وأشار راوول إلى برونو فتقدم هذا الأخير وهو يحمل الشيخ الذى لايزال سادرا فى إغمائه وقال راؤول :

- أتيتك بضيف .

احتجت فيكتوار قائلة :

- آه ، كلا .. كلا .. لاأريد .. كفانى مالقيت من ألاعيبك ودسائسك .. انتهى كل ذلك .. هل تسمع ؟ لقد تقدم العمر الآن .

- تقدم بك العمر ؟ أنت ؟ هراء .. إن من يراك لايعطيك أكثر من

سبعين سنة .. لن ترفضى إسداء خدمة صغيرة لى ياعزيزتى فيكتوار .. للمرة الأخيرة .

ودفع برنو إلى الردهة ثم تقدمه إلى غرفة صغيرة تؤدى إلى الحقول من الناحية الأخرى للبيت .

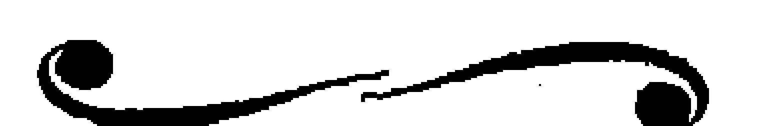
ـ قضبان بالنوافذ وقفل بالباب .. حسن .. لايدرى المرء ماقد يحدث .. ضعه فوق الفراش .. ستبقى هنا يابرنو وستعنى به .. وستمضى فيكتوار إلى البلدة لشراء الأدوية .. أنتما مسئولان عنه أمامى ، ولا كلمة واحدة لأى كائن كان وإلا انتزعت لسانكما .. هناك غرفة أخرى فى الطابق الأول ، إذا كانت ذاكرتى لاتخوننى .. ستمضى فيكتوار بك إليها ، فأنت بحاجة إلى النوم .

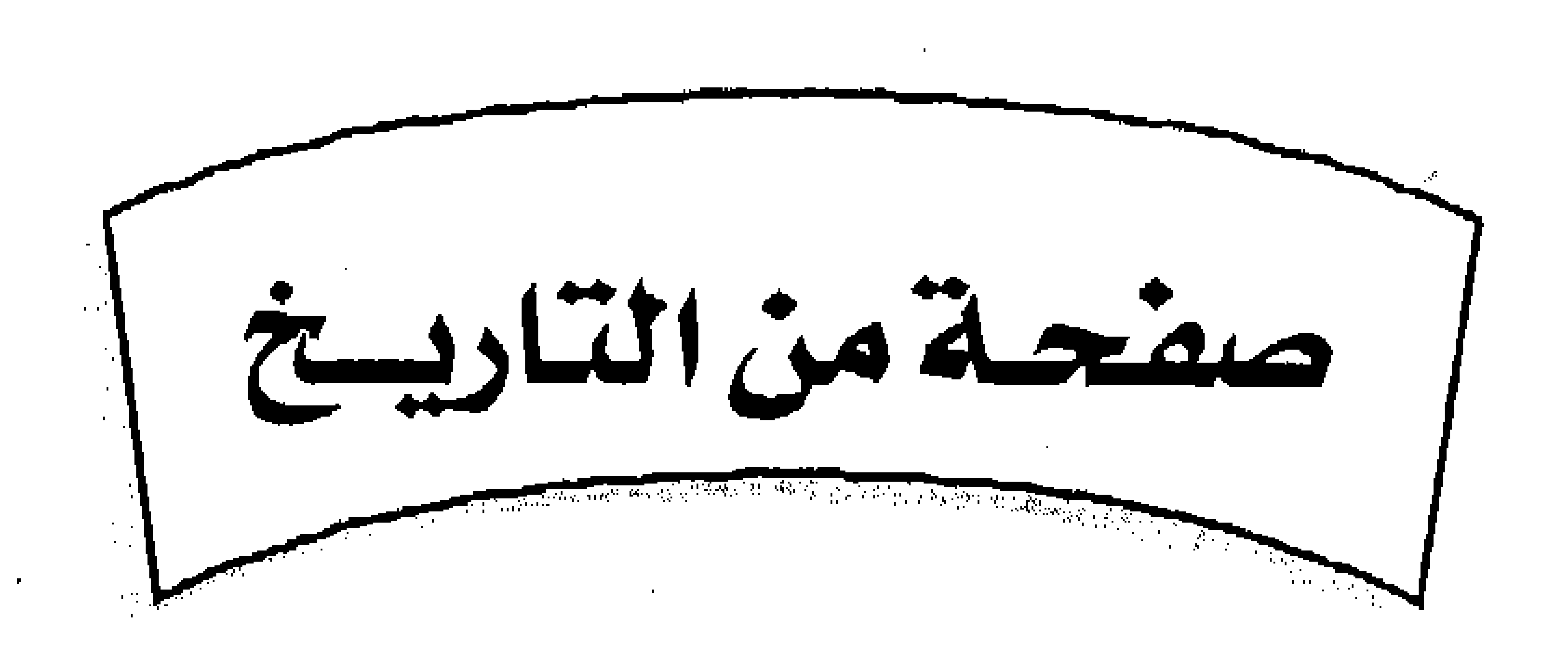
قالت فيكتوار :

ـ ولكنك أنت مرهق أيضاً ياصغيرى .. إن سحنتك تثير الخوف .. يجب أن تنام أنت أيضاً.

أمسك راوول مقعدا وجلس بجوار الباب وقال :

ـ أنام .. هل تمزحين ؟ ألاتفهمين ياعزيزتى ؟ سر يونرفيل !





رغم علاقتى الطيبة الودية مع أرسين لوبين والثقة الكبيرة التى أولانى بها فى شتى المناسبات، فلاتزال فى حياته بعض الأسرار التى لم أفلح بعد فى أن أجلو غوامضها، وعلى الخصوص قدرته العجيبة ليس فى التنكر فحسب وإنما فى تقمص أية شخصية إلى حد أنه لا يمكن أن يخطر لأى أحد أنه هو لوبين نفسه .. فهل تراه عملا، كما يزعم، مع فريجولى أم أنه تلقى دروسه، كما يؤكد، فى الكونسرفاتوار، وهل صحيح أن ميليس لقنه أسرار السحرة والحواة ؟ عندما ألقى على مغامرنا القومى أسئلة محددة فى هذا الصدد يكتفى بأن يبتسم أو بأن يرد كما فعل ذات يوم مع القاضى فورميرى إذ قال :

إننى أشخاص كثيرون ياسيدى القاضى ولست على علم بسيرة أشخاصى العديدين .

ولكن الشئ المؤكد أن ارنستين، خادمة الأستاذ فرينيزو، موثق العقود بمدينة هونفلير، أدخلت فى ذلك الصباح فى غرفة الصالون رجلاً قصير القامة يرتدى ثيابا بالية، حلو الشمائل، طلب منها أن تنبئ سيدها بأن الكونت هونوريه دى بريساك يريد أن يقابله ، وقرصها فى خدها فى رفق بحيث كان من المستحيل أن تغضب .. وأحس الأستاذ فرينيزو بدوره من نحو الكونت دى بريساك ، حالما رآه ، بميل كبير، ميل تحول إلى ود أكبر عندما عرف أن زائره يشاركه حبه الشديد للتاريخ .

بدأ الكونت يقول بعد أن أخذ مجلسه فى أفضل مقاعد المكتب :

- علمت من ابن عم لى أن قصر يونرفيل معروض للبيع ولا أخفى عليك أنه يسعدنى أن أشتريه .

وضحك ضحكة قصيرة ظريفة كما لو أنه أول من يسخر من نزواته واستطرد :

- وليس ذلك لبنائه المدهش أو لمعرضه الرائع فحسب وإنما ، وأقول على الخصوص ، لأسباب عاطفية بحتة .. آه ، نعم .. إننى رجل محافظ وأعرف أن كثيراً من الذكريات ، وأغلبها ذكريات مجيدة ، ترتبط باسم يونرفيل .

أسرع موثق العقود يقول وقد أسعده أن يجد مستمعا يستطيع أمامه أن يرخى العنان لهوسه البرئ دون أن يتعرض لأن يقاطعه ويقول فى فتور "وبهذه المناسبة أرجوك أن .." .

- وهى ذكريات بعضها غير بعيد جدا عنا .. هل تعلم أن ملكنا المسكين لويس فيليب أقام بضعة أيام فى القصر عند هربه إلى انجلترا فى ذلك الشتاء المحزن من عام ١٨٤٨ ؟

قال الكونت : أظن أننى قرأت فى الواقع شيئاً فى هذا الصدد ، ولكن هناك قصصا متناقضة تدور حول هذا الحادث المؤسف .. والحق يا أستاذ أنها تؤجج رغبتى فى الحصول ..

- ولكن معلوماتك خاطئة ، فإن قصر يونرفيل ليس معروضا للبيع .

- حقاً ؟ هذا خبر سيئ فى الواقع .. ويؤسفنى سماعة بالتأكيد .

- وأنا حزين جدا من أجلك ، فأنا الذى قمت باجراءات البيع منذ ثلاث سنوات وقد كان عميلى مهندسا يدعى جاك فيرانج .. رجل شهم وذكى جداً ونشيط جداً .. بل أقول أنه كان جم النشاط .. ألم يعقد

العزم على إدخال تجديدات فى أرجاء القصر ؟

ـ نعم . إن رأيى كرأيك تماماً فى هذا الصدد ياسيدى الكونت ، فإن الجيل الجديد لا يهتم فى بعض الحالات بالحفاظ على الآثار ولا يحجم عن تدميرها .. وقد بدا جاك فيرانج بإدخال الكهرباء .. وهذا أمر طبيعى فيجب أن يساير الإنسان وقته .. ولكنه أراد هدم الجناح الأيمن وتوسيع فناء الشرف وإدخال الماء كما لو أن البئر لم يكن فيها الكفاية .. وأراد أيضاً استبدال الاسطبلات بجراج .. وفى هذه النقطة بالذات لم أكن لأوافقه .

صاح هونوريه دى بريساك فى عنف :

ـ آه ، كلا . ولكن ألا يمكن أن أقوم بزيارة هذا السيد فيرانج ؟

ـ كلا للأسف .. فقد مات ، وبطريقة مأساوية .

وضغط الأستاذ فرينيزو على جرس فأقبلت ارنستين ، وقال المحامى : هل لك أن تشرفنى وتتذوق شراب التوت الذى أعده بنفسى ياسيدى الكونت ؟ إنه شراب ممتاز .. وسوف ترى ذلك بنفسك .. أحضرى لنا قدحين ياارنستين ، إذا سمحت .

وأدنى مقعده من مقعد زائره واستطرد :

ـ لقى جاك فيرانج وزوجته حتفهما بعد شهرين تقريباً من إقامتهما فى القصر فى حادث سخيف .. كانا يقومان بنزهة بحرية على مقربة من هنا وغرق الزورق .. إن القصر يجلب النحس فإن صاحبيه السابقين ماتا هما الآخران بطريقة محزنة .. لقى الأول حتفه فى حادث صيد .. أطلق رجل مجهول لم يعرفه أحد حتى اليوم رصاصة أصابت منه مقتلا ووقع الثانى من فوق الصخور .. وكل هذا يثير الحزن .

ـ لنعد إلى آل فيرنج .

ـ حسناً ، إنهما تركا فتاة قاصرة تدعى لوسيل .

قال الكونت : واذن ؟

ـ انتظر .. كان لجاك فيرانج أخوان ، هوبير ، الأخ الأكبر وقد أصبح القيم على اليتيمة ، وهو الذى يسكن القصر الآن .

ورفع المحامى قدحه وراحا يشربان فى بطء وهما يتذوقان الشراب وعاد الكونت يقول :

هذا أمر مؤسف ، ولكننى مضطر الآن إلى العدول عن مشروعى .. لك أن تصدقنى على كل حال إننى لست آسفاً على هذا الإجراء الذى قمت به لأننى أظن أنك لن ترفض أن تطلعنى طبعاً على الظروف التى لجأ فيها الملك إلى ..

قال الأستاذ فرينيزو :

ـ طبعاً ، خصوصاً وأنها نقطة تاريخية أهتم بها كثيراً ، ولن أعيد إلى ذاكرتك ياسيدى الكونت أسباب ثورة سنة ١٨٤٨ .

تنهد هونوريه دى بريساك وقال :

ـ لاداعى لذلك طبعاً .

وأردف يقول فى تفكير :

ـ لقد حدثنى المرحوم أبى كثيراً عن الثورة وعن تنازل الملك عن الحكم ، وعن هربه هو وزوجته إلى تريانون ثم إلى درو ...

ـ وهل قال لك المرحوم أبوك أن الملك نزع شعره المستعار وارتدى سترة عادية من الصوف وأخفى عينيه خلف نظارة سميكة حتى لايعرفه أحد، وأنه على الرغم من تنكره هذا عرفه أحد الحراس الوطنيين فى مدينة أفرو وكاد أن يبلغ عنه ؟

قال الكونت ولم يكن يفكر فى إخفاء فضوله الشديد :

ـ هذه نقاط لم أكن أعرفها .

قال موثق العقود فى ارتياح :

ـ وأنت لست وحدك .. بعد ليلة طويلة من القلق وصل الملك فيليب إلى قصر يونرفيل حيث انضمت الملكة إليه بعد بضع ساعات .. وكان المكان مثاليا للمراقبة ، فمن ناحية ، الريف حيث يمكن للجيش أن يظهر فى أية لحظة ، ومن الناحية الأخرى ، البحر، وهو الوسيلة الوحيدة الباقية للنجاة .. والكونت يونرفيل ، وهو الشخص الوحيد الباقى من آل يونرفيل ، كان رجلاً متقدما فى العمر ولكن رئيس خدمه ويدعى ايفاريست كان شاباً ، وكان شديد الإخلاص مثله للملكية .. وكانت الحكومة المؤقتة قد أصدرت أوامر مشددة لمراقبة الساحل .. وكان ايفاريست هو الذى فكر فى أن يكترى سفينة صغيرة فى تورفيل ، وقد تقاضى صاحب السفينة ، ويدعى هولو ، ثلاثة آلاف فرنك لكى ينقل الملك إلى الساحل الانجليزى .. وكان ايفاريست هو أيضاً الذى مضى بالملك فى إحدى العربات إلى تروفيل .

تمتم الكونت ، وكان قد انحنى إلى الأمام رغما عنه وراح يلتهم موثق العقود بعينيه :

ـ هذا أمر مثير .

استطرد الأستاذ فرينيزو :

ـ والبقية أكثر إثارة ، فها هو الملك فى تروفيل ، وكل شئ جاهز ، ومع ذلك فلم يرحل ، بل على العكس ، عاد فى ليلة ٢ مارس إلى قصر يونرفيل .. فلماذا ؟ زعم البعض أن البحر كان هائجاً وزعم الآخرون أن صاحب السفينة خشى أن يبلغ عنه أحد وفر فى آخر لحظة ، وهذه الأسباب تبدو لى غير مقنعة ، فهناك شئ غامض لاتفسير له فى

تصرف الملك العجوز المطارد الذى لم يكن هناك من هم يشغله غير نجاته هو شخصياً .. وأنت تعرف ، لأن هذا الأمر أصبح معروفاً من الجميع ، أن لويس فيليب أبحر أخيراً في تلك الليلة ، وأعنى بها ليلة ٢ مارس إلى هونفلير على السفينة "ليكوربييه".. التى وضعها قنصل إنجلترا فى فرنسا تحت تصرفه فى ميناء الهافر .. ومع ذلك فقد كان البحر هائجاً ، ومن ناحية أخرى ، كان المدعى العام فى بون أوريمير وجنوده يراقبون الموانى والطرق مراقبة دقيقة ، فلماذا أصر الملك ، وكان موجوداً بطريقة ما فى تروفيل ، على العودة فجأة متحديا بهذه الصورة خطرا جسيما لم يكن هناك أى مبرر له .. من رأيى أن قرار الهروب ليس له غير تفسير واحد وهى ضرورة ماسة ومفاجئة لكى يتواجد فى القصر، أما لكى يأخذون شيئاً كان قد أودعه فى عهدة أصدقائه المخلصين وما على العكس لأنه أراد أن يكلفهم بمهمة سرية تردد فى أن يعهد بها إليهم حتى آخر لحظة .

وأردف الأستاذ فرينيزو ويقول :

- ولكن ليس فى مقدورى أنا أن أجلو هذا السر التاريخى الصغير .

قال الكونت :

- ولكنك توصلت إلى نتائج رائعة .. اسمح لى أن أهنئك على هذا التبحر .

احتج المحامى فى تواضع : أوه .. لاداعى للمبالغة فى مقدرتى وقدراتى فأننى وجدت أغلب هذه المعلومات فى المذكرات التى تركها الكونت يونرفيل الشهم... إن الرجل المسكين لم يعش كثيراً بعد مليكه فمات فى سنة ١٨٥١ ، ويمكنك أن ترى قبره فى مقبرة يونرفيل بجوار قبور أجداده .

وبدا كأن الكونت بريساك قد صغر فجأة ، وكان جالساً فى مقعده مستقيماً جداً وينقر بأصابعه فى عصبية على مستوى مقعده وهو فريسة انفعال غريب .. وتمتم يقول :

ـ رجل عاصر الثورة والإمبراطورية والملكية .. لاريب أن هذه المذكرات ذات فائدة كبرى .

ـ كلا .. إذا أردت الحقيقة .. فإن أسلوبها قبل كل شئ ممل جداً ، وهى عبارة عن كراسات لا تقل عن ستمائة صفحة ، مكتوبة بخط دقيق يتعذر قراءته فى أغلب الأحيان ، ولكى تفرغ من قراءتها فلابد لك من صبر لا أملك أنا منه شيئاً .. لابد أن يكون لديك متسع من الوقت لذلك ، فإنها تضم أشياء لايمكن هضمها وتفاصيل تافهة .. ثم إن كل ما فيها عرضة للطعن ، فإن الكونت كان رجلاً متعصبا ، ومن ناحية أخرى فإن الأحداث التى ذكرتها لك لاريب أخلت بعقله إلى حد ما لان الجزء الأخير من المذكرات يضم فقرات مبهمة تماماً .

سأله الكونت فى اهتمام :

ـ هل يمكن أن تضرب لى مثلاً ؟

ـ لا أستطيع أن أتذكر .. ولكن لاشئ يمنعك من أن تطالع هذه المذكرات بنفسك ، لأن جاك فيرانج أهداها إلى شركة نورمانديا للتاريخ والآثار .

ـ وهل تظن أنه قد يوجد فى القصر أوراق أخرى أو مستندات أخرى تتكلم عن الحقبة التى تكلمنا عنها الآن .

ـ كلا.. لا أظن ذلك .. ولكن ليكن معلوما أننى لم أفحص كل الكتب الموجودة فى المكتبة .. لعلها تضم خمسة عشر أو عشرين ألف كتاب ولم تدرج فى فهرس أبداً .. كان جاك فيرانج ينوى أن يبوبها وأن يعد لها فهرسا وكل ما أستطيع أن أؤكده لك هو أن المذكرات مازالت ،

رغم التحفظات التى تقال عنها ، المصدر الوحيد الموثوق به فيما يتعلق بأحداث فبراير ومارس سنة ١٨٤٨ .

وكان الكونت قد استعاد هيئته التافهة السابقة فنهض وهو يقول :

- سوف أتحسر على قصر يونرافيل ماحييت .. ولكننى سأحتفظ بأحسن ذكرى عن زيارتى لهونفلير.

وشيعه المحامى حتى باب الشارع .. وعلى العتبة تبادلا بعض المجاملات مرة أخرى ثم انصرف الكونت وهو محنى الظهر قليلاً ويكاد يجر قدميه ، ولكنه ما أن انعطف إلى الشارع الجنبى حتى نصب قامته وأسرع فى خطاه .. وكان فى انتظاره سيارة بجوار الطوار فاستقلها وهو يتنهد قائلاً :

- عجوز أحمق .. ولكن شرابه لذيذ وممتاز .. لو أستطيع على الأقل أن أعرف دم من .

كانت الشمس قد أوشكت على المغيب فى ذلك اليوم عندما هبط راوول دابنياك من سيارته أمام مسكنه ببوليفار بيرير، وكان قد تخلص أثناء الطريق من تنكره فى هيئة الكونت دى بريساك واستعاد هيئته كشاب رياضى أنيق .. لم يكن قد كف عن التفكير فى اعترافات الأستاذ فرينيزو، وأحس بقلق شديد .. لقد كانت هذه الزيارة لمكتب موثق العقود قمة فى العبقرية ، وكان ملهما إذ امتدح شغف الرجل العجوز بالتاريخ .

لم يكن هناك طبعا ما يثبت أن هناك علاقة بين حادث الأمس الخفى وبين الأحداث التاريخية التى كان القصر مسرحا لها قبل ذلك بستة وستين عاماً، ولم يكن فى الكلمات الغامضة التى نطق بها الشيخ العجوز الذى عذبوه شيئاً يبدو أنه يمت إلى إقامة الملك لويس فيليب الوجيزة فى قصر يونرفيل ، ومع ذلك فإن غريزة لوبين العجيبة

أنذرته بأنه يجب أن يوجه أبحاثه إلى هذه الناحية .. ثم أنه لم يكن يملك فى تلك اللحظة أية تفاصيل أخرى من شأنها أن توجهه إلى طريق آخر ، وكان لابد له لكى يبدأ أبحاثه من الحصول بأية طريقة على المذكرات المشهورة التى قرأها الموثق بتلك العجالة ، وراح يغلى من اللهفة .. ولكنه كان يعلم جيداً أنه لايجب أن يتعجل أبداً فى سبيل الحصول على مايريد ، ولهذا جلس فى هدوء أمام مكتبه وأخذ كل وقته لكى يشعل سيجارا ثم ضغط على زر مستتر فى درج بالمكتب انفتح على أثره درج صغير خفى أخرج منه أضبارة ضخمة تحتوى على نماذج لخطوط جميع المشهورين .. كان فى هذه الاضبارة آلاف منها، ابتداء من خط ليلى أمور ، الممثلة المشهورة إلى خط فالنجلاى ، الرئيس السابق للوزارة وعضو مجلس النواب ، مرورا بخطوط المفتش العام جانيمار وبرجسون والنائب دوبريك وقداسة البابا بول العاشر ، وطالما امتدح الناس طريقة لوبين العجيبة فى التصرف ، غير أن أحسن انتصاراته وأكثرها غرابة إنما يدين بها إلى طريقته التى لاتخيب .. كان لوبين يعرف كيف يعمل قبل أى شئ آخر .

أخرج بطاقة باسم جابرييل تبارو ، عضو المجمع ، وفحصها لحظة فى تركيز عميق .. وبنظرة واحدة عرف أدق الخصائص المميزة لخط الرجل .. الحروف المتباعدة بعضها عن بعض والأخرى المتشابكة ، ثم أخذ ورقة بيضاء وراح يتمرن بضع دقائق فى تقليد الخط الرفيع الذى يدل على عصبية صاحبه ، ثم فتح دليل التليفون وبحث عن عنوان شركة نورمانديا للتاريخ والآثار ثم بدأ يكتب مرة واحدة وفى سهولة تثير جزع أى خبير فى الخطوط .

إلى السيد جاستون سيروس .

سكرتير شركة نورمانديا ...

زميلى العزيز .. أجيز لنفسى بأن أوصيك خيرا بصديقى راوول دابنياك ، وهو شاب جغرافى ينتظره مستقبل زاهر .. وقد تخصص فى تاريخ موطنك الصغير ويعد بحثا عن الفن النورماندى .. وأنا على يقين من إنك تهتم اهتماماً كبيراً بهذا الفن وأرجو أن تسهل له أبحاثه وأن تتقبل أيها الزميل العزيز .

وفرغ راوول من خطابه وهو يبتسم ووقعه .. سوف يحصل على المذكرات اذن ، وسوف يفحصها على مهل ويتحقق منها صفحة صفحة ، ولعله يخرج منها بلا طائل ولكن لعله يكتشف شيئاً .. وبالذات ماغاب عن بحث الأستاذ فرينيزو .

وكانت شركة نورماندیا للتاريخ والآثار تقع فى مبنى قديم وهادئ بشارع بونابرت .. وقال راوول يخاطب البواب :

- مستر سيرول ؟

أجابه البواب دون أن يرفع عينيه : الطابق الأول .

وقال راوول يحدث نفسه وهو يصعد درجات السلم :

- أرجو ألا يلقى علىّ أسئلة كثيرة عن الفن النورماندى وإلا فإن صديقى تابارو المشهور يخاطر بأن يفقده اعتباره .

كان بالباب بطاقة زيارة عادية مثبتة بأربع دبابيس .. وضغط راوول على الجرس .. ماشكل هذا السيرول ؟ تخيله راوول رجلاً قصيراً شحيما يغطى رأسه بقلنسوة سوداء ويضع قطناً فى أذنيه .. ومرت فترة طويلة ولم يظهر سكرتير شركة نورماندیا .. ولكن هل سمع أولا ؟ وضغط راوول الجرس مرة أخرى بدون نتيجة .. فقال :

- هذا أمر مؤسف .. خطاب تقديم محرر بهذا الأسلوب الجميل .. لابأس .. سأخدم نفسى بنفسى ، ومهما يكن فقد اعتدت على ذلك .

وما كاد يدفع الباب حتى انفتح ، ودخل ورأى غرفة المكتب على يمين الردهة ، وتقدم بضع خطوات وألفى نفسه فى غرفة واسعة بجدرانها رفوف حتى السقف مملوءة بالكتب .. وفى وسط الغرفة تمتد منضدة كبيرة مكسوة بسجادة طويلة تتدلى حتى الأرض ، وفوقها صناديق بطاقات وسجلات .. وقال :

- المكان متواضع .. من المؤكد أن الثقافة لا تغنى أصحابها .

وصعد فوق سلم موضوع بالذات أمام القسم الذى يحمل حرف الياء .. وما كاد يلقى نظرة حتى رأى الفراغ .. كانت مذكرات الكونت يونرفيل غير موجودة .

لم يتمالك راوول من أن يكتم صيحة غضب .. ماذا ؟ هل جرؤ أحد؟ ومع ذلك فإن موثق العقود أكد أن المذكرات لاتضم شيئاً ذا فائدة تذكر .. لو أن أمين المكتبة لم يقع اختياره على هذه اللحظة بالذات لكى يتغيب .. وهبط راوول من السلم وأجفل بشدة ، ثم اقترب من المنضدة فى بطء ورفع طرف السجادة .. ظهرت أمامه قدمان ينتعلان خفا .. لم يذهب أمين المكتبة بعيداً .

لم يضيع راوول لحظة واحدة ، فإن بعضهم قد يأتى فى أية لحظة فجثا وأزاح السجادة .. كان الرجل تحت المنضدة ، تماماً كما تخيله .. وكل ما هناك أن قلنسوته وقعت بجواره ، وكان قميصه ملوثاً بالدم .. كانت الرصاصة قد أحدثت ثقبا رفيعاً عند مستوى القلب .. وكانت الجثة باردة .

أعاد راوول السجادة .. لم يكن هناك أى شك فى أن القاتل قتل سيرول لكى يسرق المذكرات .. كان ذلك واضحاً وضوح الشمس .. وكان سجل الاستعارات مفتوحاً فوق المنضدة .. وجرى راوول بعينيه على عامود الكتب التى خرجت .

مذكرات الكونت يونرفيل : ٦ يونية ، البارون جالسيران .

وألقى نظرة على عامود الكتب المعادة :

مذكرات الكونت يونرفيل ١٤ يونية ، البارون جالسيران .

كان يجب أن تكون المذكرات موجودة إذن .

كان راوول يعرف الخطر الشديد الذى يتعرض له ببقائه فى المكان ، ومع ذلك فقد كان عاجزاً عن الحركة .. أثارت هذه الجريمة حيرته ، وأحس فى غموض بأنه يواجه خصماً قوياً ضارياً شديد العزم .. ومر بيده على جبينه وتمتم :

- هذا عجيب . ولكن لعلها مجرد مصادفة .. وقد أكون واهماً .. وانحنى فوق السجل: ١٤ يونية ، البارون جالسيران .

وجرى أصبعه على العامود الآخر : ٦ يونية ، البارون جالسيران .

وفجأة أطلق صيحة دهشة .. فإن الحروف لم تكن متشابهة على الإطلاق فى حين أن المفروض أن التسجيلين قد دونتهما يد واحدة ، وهى يد أمين المكتبة .. لم يكن هناك أى شك فى أنه هو الذى حرر التسجيل الأول ولكن التسجيل الثانى ، وهو تسجيل ١٤ يونية كان تقليداً، فقد كانت الحروف فى المرة الثانية تدل على أن كاتبها قد كتبها وهو مضطرب ، فجاء التقليد واضحاً كل الوضوح .

وعندئذ دار المشهد الذى حدث أمام ذهن راوول بدقة ووضوح كاملين : الرجل . يطلق الرصاص على السكرتير ثم يخفى جثته على عجل ويدون فى السجل ما يثبت أن المذكرات قد أعيدت حتى يخفى السبب الحقيقى لإرتكاب الجريمة .

وهتف يقول :

- وأوشكت اللعبة أن تجوز على ..آه .. ذلك أن صاحبنا عرف كيف

يدبر أموره ، ولكن من عادتى أنا الآخر أن أقلد الخطوط ، فهل فهمت ياباروون ؟ أنا أيضاً أفهم ما يدور حولى .. تريد إذن الاحتفاظ بالمذكرات وحدك .. تخشى أن تقع بين أيد غير جديرة به .. يالك من رجل شهم .. لعلك تهوى جمع التحف أنت الآخر ؟ إن السيد البارون يهتم بالتاريخ .. السيد البارون رجل مثقف .

امتزج الغضب والحقد والفرح فى قلب راؤول ، وتقلص وجهه وضم قبضتيه .. وتنفس طويلاً ثم أخذ صندوق البطاقات الذى يحتوى على عناوين المشتركين .

ج .. جاردوا .. جافنر .. جالايير.. آه ها هو جالسيران .. البارون جالسيران .. ١٤ مكرر شارع كامبا ساريس ، باريس .

وخرج من المكتب على طرفى قدميه واجتاز الردهة وأغلق الباب خلفه فى عناية .. "الأمر بيننا وحدنا الآن أيها السيد الارستقراطى" .

●●●

لم يخطئ راوول ، فإن بيت البارون ، فى آخر حديقة صغيرة ، كان ينطق بالثراء .. كانت الطرقة التى تفضى إلى البسطة مكسوة بالرمل الناعم .. وعلى جانبيها أحواض من الورد ، وعلى اليمين ، خلف ستار من الشجيرات زجاج حديقة شتوية .. ودق راوول جرس الباب ، وفتح خادم له جسم ملاكم يرتدى ثياب الخدم الرسمية ويلبس فى يديه زوجا من القفازات البيضاء ، وأحس بصدمة ، فإن هذا الجسد الضخم وهذه الرأس المربعة سبق له أن رآها هناك ، على حافة الماء ، فى القارب، وهكذا لم يخطئ فى افتراضاته واهتدى إلى الأثر الصحيح ، وقال :

- أرجو أن تعطى بطاقتى للسيد البارون .. أود أن أحادثه فى أمر هام .

- هل السيد على موعد ؟

- كلا .

- فى هذه الحالة أخشى ألايستطيع سيدى استقبالك ، ثم انه يتناول عشاءه الآن .

أمسك راوول الخادم من طرف جاكتته وقال : وفر كلامك أيها الوغد ، وامض ببطاقتى إلى سيدك ، حسبك أن تقول له إننى قادم من شارع بونابرت .

- لكن ياسيدى ...

- امض .

غلب الرجل على أمره ، ونطق ببضع كلمات متذمراً ، ومضى نحو البيت .. وتبعه راوول فى غير مبالاة ، واقتطف فى طريقه زهرة ثبتها فى عروة جاكتته وما هى إلا دقيقة حتى عاد الخادم وقال : أرجو أن يتفضل سيدى ويتبعنى .

وتقدم أمام راوول عبر صالون فاخر الرياش إلى غرفة طعام ينبعث منها صوت اصطفاق أطباق ثم أفسح له الطريق .. وانحنى راوول انحناءة كبيرة ونظر إليه البارون وشوكته فى يده .. كان رجلا فى الثلاثين من عمره ، ضخم الجسم ، دموى الوجه ، حليقاً كالممثلين ، حاول أن يبدو هادئاً ولكن وجهه نم عن شئ من الانفعال وقال :

- أعترف ياسيدى أن إصرارك يثير دهشتى خصوصاً وأننى لا أدرى حقا .

وهز كتفيه وتناول صدر دجاجة وأخذ راوول مقعدا وجلس أمامه وقال :

- بل إنك تثير دهشتى ياعزيزى البارون .. ألم تخمن سبب مجيئ

.. لماذا استقبلتنى إذن بحق الشيطان ؟

قاطعه الآخر قائلاً : أرجوك .. فلنفرغ .. إنك تقتحم بابى وتدخل هنا كما .. كما ..

وبحث عن تشبيه وعلت وجهه تكشيرة وقال محنقاً : تكلم .. ماذا تريد ؟

والتقت عينياه بعينى راوول ، ومرت بهما لحظة وكل منهما يحدق فى الآخر، وكان البارون أول من خفض حاجبيه، وحفاظا على هدوئه عاود الأكل .. وأخذ راوول فخذ دجاجة من الطبق وهو يقول :

- هل تسمح ؟ إننى لم أتناول شيئاً طوال اليوم . سأشاركك الطعام من غير تكليف .

ولأول مرة ارتسمت ابتسامة خفيفة على وجه البارون وشاركه اللعبة فقال :

- البير .. هات طبقاً للسيد .

أسرع الخادم ذو القفاز فأحضر طبقاً وملحقاته وهو يبدى احتراما كبيرا ، وعاد راوول يقول :

- أخيراً .. ويزعمون أن واجبات الضيافة أصبحت معدومة .. كلا .. كلا يا ألبير .. لا أريد فجلا .. لا أتناول الفجل إطلاقاً بسبب الكبد .. قليل من النبيذ .. شكرا .. إننى أهنئك ياباروِن فإن طاهيك فنان .. وهذه الدجاجة سمينة وشهية .

وكان البارون قد كف عن الأكل وراح ينظر رغما عنه وفى دهشة إلى الرجل الجالس أمامه والذى يبدو فى تلك اللحظة أنه يفيض ظرفا وكياسة وعدم مبالاة :

- حسناً ياباروِن .. أأكون قد تسببت فى فقدان شهيتك ؟ أظن أنها

ليست تلك العبارة البسيطة : "شارع بونابرت" . التى أزعجتك إلى هذا الحد ؟

وتأمل راوول كأسه وشمه ثم قال :

- يا لهذا الاريج ! .. نخب صحتك ياصديقى العزيز .. ونخب نجاح مشاريعك .

بدأ البارون يقول : هلا قلت لى ؟

- طبعاً.. اطمئن .. لقد أرسلنى مسيو سيرول .. هل تعرفه .. وكان البارون يقطع كسرة من الخبز فى تلك اللحظة فهز رأسه وقال :

- طبعاً .. إنه سكرتيرنا الفاضل بشركة نورمانديا للتاريخ والآثار .

- هو نفسه .. حسناً .. هذا السكرتير الفاضل ، مسيو سيرول قد كلفنى الآن بالذات بأن أطالبك بكتاب .. أو بالحرى بمخطوط يدوى .. مذكرات الكونت يونرفيل .. ولكن يبدو أن هذا يثير دهشتك ياباورن .. ألاتصدق أن مسيو سيرول قد كلفنى بهذه المهمة ؟

عقد جالسيران ذراعيه وانتفخ عنقه وتمتم يقول :

- كلا .. لا أصدق ذلك .

- لماذا ؟

- لسبب وجيه ، وهو أننى أعدت بنفسى هذه المذكرات لمسيو سيرول ، وهى مذكرات تافهة على كل حال ، ولم أحتفظ بها إلابضعة أيام .. إن الخط ردئ لم أستطع أن أفك منه إلا القليل وأسلوبها ممجوج .. وغريب أن مسيو سيرول لايتذكر إننى أعدتها إليه .. صحيح أن السن تقدمت به ..

قال راوول موافقاً : هذا صحيح .. لقد تقدمت به السن فعلاً ، هذا بخلاف ما حدث له .

- ماذا ؟ .. هل وقع له مكروه ؟

- حادث بسيط .

- حادث ؟ أرجو ألا يكون الأمر خطيراً .

- رصاصة فى صدره فحسب ، ولكنها أصابته فى مقتل ، بحيث إنه ليس هو الذى أرسلنى حقاً وإنما شبحه ، وهو شبح ظريف جداً فى الواقع خفيف الروح وعلامة .. ولكنه ثرثار .. ثرثار جداً .. وقد قال لى شيئاً مخيفاً .

وأخذ راوول جناح دجاجة ، وكان يبدو خفيف الحركة ، مرحاً ، وعلى شفتيه تلك الابتسامة الساخرة المعروفة عنه . وأقصى البارون طبقه وهو يقول :

- ولكننى لا أفهم ياسيدى ..

- قال لى الشبح :

- عزيزى دابنياك .. لن أعرف طعم الراحة فى الآخرة إلا إذا علمت أن شئون الشركة منتظمة وأن مكتبتى العزيزة كاملة لاينقص منها شئ ، ولهذا أرجو أن تمضى إلى هذا البارون الطائش جالسيران وتطالبه .

قاطعه البارون قائلاً :

- آه . إننى لا أفهم إطلاقاً ما الذى ترمى إليه ، وأرجوك أن تكف عن هذرك ، أكرر لك أننى أعدت تلك المذكرات ثم إن تاريخ إعادتها لابد أن يكون مسجلا فى سجل الاعارات فإن سيرول لم يكن يفوته أبداً .

- إن التاريخ مسجل .

- اذن ؟

- إنه أمر مؤسف حقاً لأنه ليس مدوناً بخط مسير سيرول .

- بخط من إذن ؟

- بخط قاتله طبعاً .

- وهل تعرفه ؟

- نعم .

- هل أنت من رجال البوليس ؟

- أنا ؟ .. ما هذا السؤال البغيض .. هل يبدو على ؟

- هى مجرد فكرة خطرت لى .. ولكن لماذا تأتى وتذكر لى كل هذا بحق الشيطان ؟ يجب أن تلجأ إلى إدارة البوليس ياصديقى العزيز .

استعاد جالسيران رباطة جأشة وراح يحرج راوول فى وقاحة ، وكان هذا الأخير لايزال يبتسم وهم يلتهم الفخذ الثانى فى شهية كبيرة ، وقال :

- حسبت أن هذه القصة ستحظى باهتمامك .

- هى تثير اهتمامى فى الواقع .. كنت أكن نحو سيرول تقديرا عميقاً ، وأعترف أن موته .. وهو على الخصوص ميتة بشعة .. ولكننى أقول لك مرة أخرى أننى لا أرى لماذا اخترتنى أنا بالذات ؟

- إذا كنت لاترى ذلك حقاً فإنى أكون قد أخطأت ، والتمس معذرتك يابارون ، قلت لى أن الجأ إلى إدارة البوليس .. هذه فكرة لابأس بها وأراهنك أن نهاية المغامرة ستثير اهتمام هؤلاء السادة ، فقد كان هذا الشبح ثرثاراً .

- وما هى الغرابة فى نهاية المغامرة ؟

- لا .. لا .. لاداعى للإصرار .

أطبق البارون قبضتيه وقال : تكلم .

ـ حسناً .. تصور أن هذا الشبح .. شبح صديقنا سيرول كشف لى عن وجود بصمة إصبع .. بصمة إبهام ملوث بالدم على حافة الوراقة .. وأعترف إننى ما كنت لاكتشف هذه البصمة بمفردى فإن قاتلنا .. بعد دفع الجثة تحت المنضدة اعتمد بيده عليها بحركة آلية لكى يقف . ولكننى أتكلم ، وأتكلم .. مرة أخرى التمس معذرتك يابارون وأشكرك .. هذه الدجاجة ..

ـ انتظر .. إنك لم تتناول شيئاً من الحلوى .. ثم اننى يجب أن أعترف أنك أثرت فضولى .. إن كل ما تذكره لى عجيب ولم أكن أتوقعه أبداً .. بل إننى أجرؤ فأقول أنه يخرج عن المألوف .

ـ لك أن تجرؤ وتقول ما تريد يابارون .. إن الوصف صحيح فهو أمر خارج عن المألوف .

ـ وإننى اتساءل إلى أى مدى سيخرج عن المألوف .

ـ إلى حد أن أذكر لك اسم القاتل ، إذا أردت .

ـ فلتقل اننى أريد .

اضطجع راوول فى مقعده إلى الخلف وانفجر ضاحكاً ، وكلما ضحك كلما تقلص وجه البارون جالسيران من الغضب.. وتمتم راوول يقول :

ـ هذا غريب جداً .. كلا . إن أمرك مضحك كما لو أنك لاتعرف القاتل انه أنت يابارون.. من تريد أن يكون ؟

ـ عظيم .. إنك تزعم إذن ..

ـ كلا .

ـ آه . حسناً . إذن فأنت لاتتمادى إلى حد الزعم ؟

أمسك راوول عن الضحك فجأة ، وقال فى صوت قاطع وهو يحنى رأسه شيئاً ما :

- ليس من عادتى أن أزعم .. إننى أؤكد وأقدم الدليل .. إن أول خبير يأتى لمقارنة نموذج من خطك مع الخط المزيف الموجود فى سجل الاعارات سيقرر أن الخطين متطابقين .

- شريطة أن يقترح أحد القيام بمثل هذه المقارنة .

- سوف يقدم بعضهم هذا الاقتراح .

- ومن هذا ؟

- أنا .

- وهل تظن أن هذا يكفى ؟

- كلا .

- إذن ؟

- سوف يقوم خبير آخر بمقارنة بصمة إبهامك الأيسر بالبصمة الدامية الموجودة على الوراقة .

- وأنت أيضاً الذى ستقترح القيام بهذه المقارنة ؟

- نعم ، أنا .

- بمعنى آخر إن كل شئ يتوقف عليك ، وعليك أنت وحدك ، إن مسيو راوول يريد تصريف أمور الدنيا وفق هواه .

- لعمرى هو ذلك تقريباً .

وكان البارون قد انحنى بدوره ، وراح كل منهما ينظر إلى الآخر من فوق المائدة متحدياً .. وفى بطء دعك البارون بأصابعه مفرش المائدة فى حين احتقن عنقه شيئاً فشيئاً ، وأخيراً صاح يقول فى

صوت أجش :

ـ كم ؟

ـ كم ماذا ؟

ـ ثمنك ؟

ـ ثمني ؟ .. أى ثمن ؟ آه .. ولكن من حسبتنى ؟ ثمنى ؟ ولكن لاشئ على الإطلاق .. فأنا .. ما أنا إلا رسول ، ولو أننى كنت وحدى .. ولكن هناك شبح ذلك المتشكك مسيو سيرول ، وهو فوق تشككه متشدد جداً.. ولكنه معقول أيضاً، وهو غير حاقد عليك ، ولايطالب إلا برد المذكرات حتى يمكنه أن يرقد فى سلام ، فقد قال لى : فليعد هذا الوغد المذكرات فألتزم الصمت .. ومهما يكن فأنا لست مستاء أبداً فى الآخرة .

ـ هذا ابتزاز .

ـ لكل امرئ أسلحته .

ـ إننى أوثر أسلحتى .

وضغط البارون على جرس فظهر الخادم ، وبإشارة من سيده مضى ففتح درجا ودس فيه يده المغطاة بالقفاز الأبيض وأخرج منه مسدساً أوتوماتيكيا صوبه نحو راوول ، وقال البارون :

ـ ولاحركة ياصاحبى العزيز .

وضغط الجرس للمرة الثانية، وعرف راوول فى الوافد الجديد القزم الأعرج الذى سبق أن رآه هو الآخر فى القارب ، وقال :

ـ إننى أهنئك ياعزيزى البارون .. لاريب أنك اخترتهما من حديقة الحيوانات .

وإذ تقدم الشقيان منه بادرهما قائلاً : اخفضا أيديكما أيها

الخادمان ألبير ، سوف تقدم لنا القهوة فى الصالون .

ثم ألقى نظرة إلى ساعته وأردف يقول : العاشرة والنصف . ما أسرع ما يمر الوقت .. ذلك أن المرء لايتملكه الضجر فى بيتك يابارون . آه . أستطيع القول أنك تعرف كيف تسرى عن ضيوفك ، ولكن مما يؤسف له أننى مضطر إلى الانصراف فى خلال ربع ساعة .

- حقاً ؟

- نعم ، فإنى على موعد فى الساعة الحادية عشرة إلا الربع بالتحديد .

- مع امرأة ؟

- كلا ، موعدى هذه المرة مع صديق لا أريد أن أدعه ينتظر .

- بل سينتظر .

- أوه ، أبدا .. فإذا لم أخرج من بيتك بعد ربع ساعة . فسيرسل طردا صغيرا إلى عنوان بالذات ، فهل تخمن ماذا يوجد فى هذا الطرد ؟ كلا . أنت ضيق الأفق يابارون .. فيه بكل بساطة قطعة من الوراقة مع شرح واف بطريقة استخدامها .

وصب راوول لنفسه قليلا من النبيذ وعقد ساقيه وألقى ذراعه فوق مسند مقعده فى غير اكتراث ، وجرع شرابه فى بطء وفى نهم فى حين انقلبت سحنة البارون ، وعاد راوول يقول :

- أنت غبى .. وكنت أظنك على جانب ولو يسير من الذكاء ! كيف خطر لك أنه يمكن أن أعرض نفسى لخطر داهم دون ترو .. انصرفا ياهذان .

نظر الخادمان إلى جالسيران فهز هذا رأسه فوضع البير المسدس أمامه ، وانصرف مع زميله وهما يتذمران وقال راوول :

- هذا عين العقل .. والآن ؟ المذكرات ؟ لم يبق غير سبع دقائق وأرجو أن تكون ساعة صديقى مضبوطة وألا تقدم .

قال البارون :

- أيها الوغد .

- إننى لا أطالبك باعتراف .. المذكرات !

نظر البارون إلى المسدس ، وبدا للحظة كأنه يتردد ثم نهض ، وهو يلقى بمنشفته على الأرض .. ومد راوول يده فى هدوء وأمسك بالمسدس وقال :

- تخطئ إذ تلهو بمثل هذه اللعبة ، فإن المصائب تقع بسهولة وفتح الخزان وتحقق من أن رصاصة قد أطلقت منه ثم أعاد المسدس فوق الغطاء ، وكان جالسيران فى الغرفة المجاورة يبحث فى خوان وهو يسب ويلعن . وبدون أن ينطق بكلمة القى بالكتاب فوق المنضدة ، وهو كتاب ضخم مجلد بالجلد وعلى سطح غلافه تاج الكونتية . وتصفحه راوول على عجل . كانت الصفحات مغطاة بكتابة دقيقة ضيقة حتى الهوامش . وقال :

- هذا حسن .. فلترقد روح سيرول فى سلام .. إليك نصيحة صغيرة ياباورن .. تجنب نورمانديا .. فالجو فيها رطب ورديئ .. والرطوبة ضارة بروماتيزمك .

ووضع الكتاب تحت ابطه وخرج وهو يصفق الأبواب بالجدران تفاديا لأية مفاجأة .. ولكن الخادمين كانا قد اختفيا .. وتوقف وصاح وهو على البسطة :

- أعلم ياعزيزى البارون أن البصمة الدامية إن هى إلا مجرد مزحة .

ثم أسرع إلى الحديقة وهو يضحك .

وبعد نصف ساعة كان ينضو عنه ثيابه فى مسكنه الذى يتخذه فى بوليفار بيرير ، وحدث نفسه قائلاً :

- لا أستطيع الاحتمال .. ولكننى غلبتك على كل حال ياباورن وقهرتك . ولا شك الآن أنك تتميز غضباً وتتلوى فوق النار ، أتحرق أقدام الشيوخ .. أنا بدورى أشويك على نار هادئة .

وتثاءب طويلاً ، وأخذ يرقص وهو بالبيجامة فى مرح ويقول :

- أوليه ! رقصة الشبح ! فليسقط الارستقراطيون .. وفكر فجأة فى الفتاة الشقراء ، هناك ، فى قصر الجميلة النائمة وتمتم :

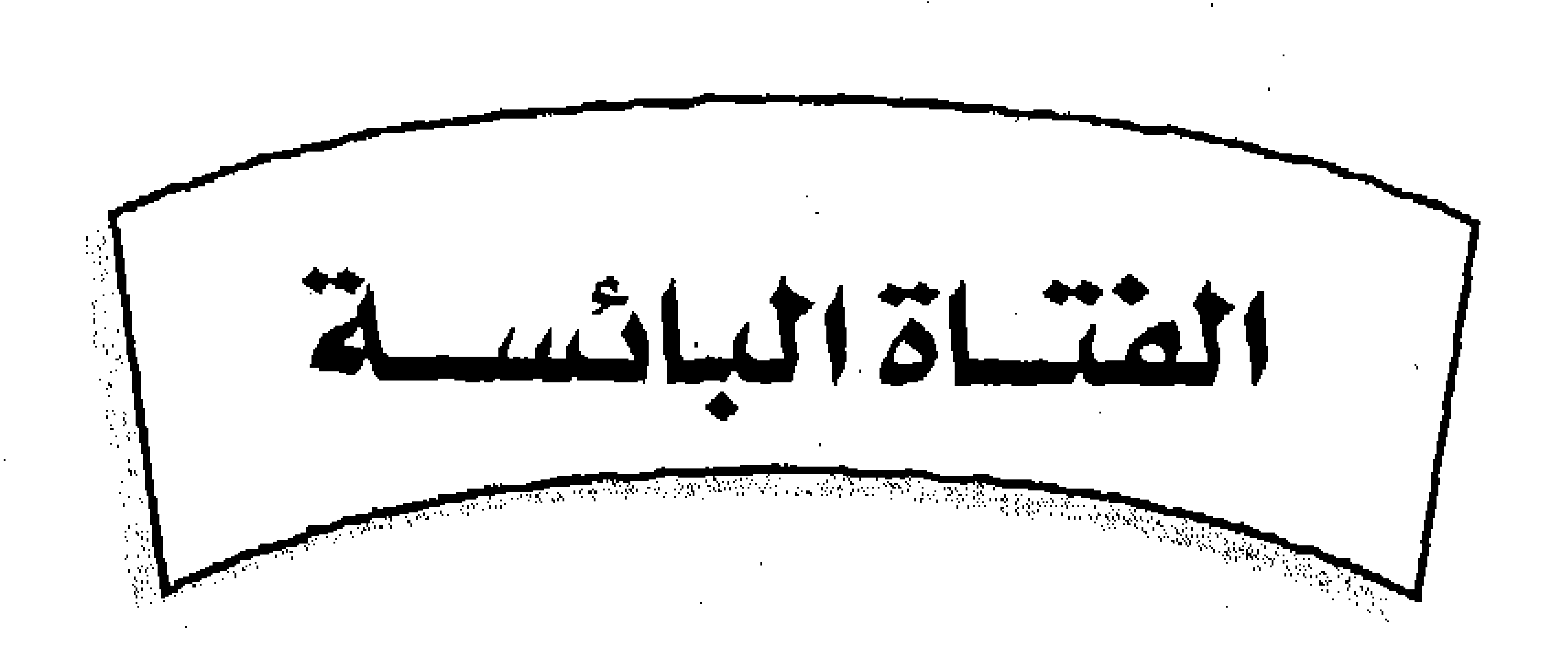
- آه أيتها الأميرة ! لو أنك رأيت فارسك الجميل .

وتنهد واستلقى فوق الفراش وفتح الكتاب ، ولكن التعب حل عليه فجأة وغلبه على أمره فقال :

- غدا العمل ياعزيزى لوبين .. يكفى ما فعلته اليوم .

وأطفأ النور ونام على الفور .

وكان النهار قد طلع منذ مدة عندما استيقظ .. وكانت أول حركة منه أن مد يده نحو الطاولة ولكنه لم يتمالك من أن يطلق صيحة ، فقد اختفت المذكرات .



الفتـاة البائسـة

دفع الغضب براوول خارج الفراش وأسرع إلى الباب . لم يفكر السارق حتى فى أن يغلقه خلفه ، وكذلك باب الردهة كان مفتوحاً . وعاد إلى غرفته وهو يرتجف من الغيظ . لقد غرر به ولم تكن السرقة هى التى أخرجته عن طوره وإنما الجرأة التى تمت بها .. إنه خسر المعركة .. ليكن .. فهذه أخطار المهنة ، ولكن أن يسترد البارون المذكرات تحت أنفه فهذا ما لم يستطع أن يهضمه . وتملكه فى نفس الوقت خوف أصم ، فقد عرف جرأة العدو على حقيقتها مرة أخرى وتأكد من تصميمه . ستكون المعركة ضارية تحفها الأخطار ، لا رحمة فيها ولا هوادة . وأرغم نفسه على الضحك ، ولم يلبث ، وهو يقوم بتمريناته الرياضية الصباحية ، أن ابتسم وهو يفكر فى الهجوم المضاد .. صحيح أن المذكرات الآن بعيدة عن يديه ، ولكن يبقى الشيخ . آه أما هذا فسوف يحمله على الكلام ، وبأسرع ما يكون .

وصلصل جرس التليفون ، وكان يتوقعه ، فتناول السماعة :

ـ الو .. هل تعرف صوتى ؟ نعم ياصديقى العزيز .. هو أنا . يجب أن أعتذر لك ، فأنا لم احسن استقبالك أمس .. فقد كان العشاء متواضعاً ، وقد استولى على الخجل فلم يغمض لى جفن ، وقلت لنفسى ماذا لو أقوم بزيارة قصيرة لهذا العزيز راوول ؟ كانت بطاقتك معى وعليها عنوانك . وكان الوقت متأخرا بعض الشئ ، ولكن الحرب هى الحرب ، أليس كذلك ؟ وبهذه المناسبة ، أسديك نصيحة ، وهى أنه

يجب أن تغير أقفالك ، فإن دخول مسكنك من أسهل الأمور ، وعليه ، فقد دخلت ، ولكن ماذا أرى ؟ هذا العزيز دابنياك ينام كالملائكة . لم يطاوعنى قلبى على إيقاظك ، فأنا لست رجلاً شريرا .. واكتفيت بأن آخذ معى تذكارا .. تذكاراً تافهاً إشارة إلى مرورى . وإذا كانت المذكرات قد أثارت اهتمامك حقاً لوجدتك عاكفاً على قراءتها ، ومع ذلك فإننى أؤكد لك أنها جديرة بأن تقرأ .. فهى تحتوى على أشياء .. وأشياء . وسوف أحرص عليها بعد قراءتها ولكن هل تعرف ما يجب عليك أن تفعل ؟

وتبدل صوت البارون فأصبح ضاريا وهو يستطرد قائلاً :

- عليك أن تستقل أول قطار إلى إيطاليا وأن تمضى هناك بعض الوقت للاستجمام بعيدا عن باريس .. بحيرة كوم مثلا .. أو البندقية إذا شئت .

قال راوول :

- وإذا رفضت ؟

- سوف تندم على ذلك ، فأنا رجل كريم ويحزننى أن يقع لك شئ . كلا . لا داعى لأن تشكرنى .. وإذا أتيت مرة أخرى للعشاء فأخبرنى قبل ذلك ، فإننى أعلم أنك رجل أكول حقاً .

قال راوول : أوه .. إننى رجل بسيط .. لن أطلب منك أكثر من هذا الطبق الذى تجيد طهوه .

- آه .. وما هو ؟

- الأقدام المشوية .

واعاد راوول السماعة .. كانت له الكلمة الأخيرة . وكان هذا عزاء ضئيلا، وإذا أصر الشيخ على الصمت .. ولكن لا .. إنه يريد أن ينتقم

من الذين اعتدوا عليه ، ولن يستطيع مقاومة استجواب يتم برفق .. سيكشف لمنقذه عن سر قصر يونرفيل ، وسيضطر البارون إلى الرضوخ للأمر الواقع . وفى تلك اللحظة بالذات هزأ راوول بالسر لأنه لم ير فيه إلا الوسيلة للانتصار على غريمه ولإعادة سخرياته وتهكماته إلى حلقه .

وارتدى ثيابه على عجل . ولم يطق البقاء مكانه . ودار المحرك عند أول دورة ، ووثب راوول وجلس أمام عجلة القيادة . وكانت السيارة فى حالة جيدة ، ولكنها فى ذلك اليوم بالذات كانت أكثر من ممتازة . لم يقع لها أى عطل ولم تنفجر عجلة من عجلاتها ، ولم تلتق بغير بضع عربات يجرها أصحابها باليد فى الطريق النورماندى، وكانت السيارة تتجاوزها كالعاصفة ، تخفيها على الفور موجة من الغبار . وفى آخر الضحى أبصر راوول قبة جرس كنيسة نوتردام دى جراس .

- حسناً ياعزيزتى فيكتوار .. والمصاب ؟

وكان قد أسرع فدخل الغرفة يدفعه الغضب إلى التصرف والإسراع بالعمل وإلى أن يعرف كل شئ على الفور .. وتمتم برونو :

- صه . انه ينام .

- هل تكلم ؟

- لم يتكلم بعد .

- والحروق ؟

- فى طريقها إلى الالتئام .

- عجل بتقريرك أيها الطبيب .. هل ينبغى أن أنتزع منك الكلام انتزاعا ماذا يقولون فى البلد ؟

- لا شئ .. بضعة أسطر فى الايكو دى تروفيل فحسب . يعتقدون أن الشيخ .. الأب برناردان كما يدعونه .. يختفى مؤقتا .. وأنه راح ضحية فقدان الذاكرة .

أمسك راوول بمعصم برونو وقال :

- ولا كلمة .. احرص على ألايعلم أحد بوجوده هنا .. وبعد ؟ ألم يتكلم أحد عن القصر ؟ وعن نوم أصحابه ؟

هز برونو رأسه فعاد راوول يقول :

- طبعاً ، فلم يفطن أحد لما حدث .

وعاد برونو يقول : وقد أقبلت الشرطة من أجل الشيخ . هذا ما سمعته فى الحانة ، فقد تجولت فى البلد كما لو كنت سائحاً عادياً ، ولكن الأهالى هنا يرتابون فى الأجانب .

همس راوول :

- استمر .. قل كل شئ .

كان يراقب الشيخ برناردان ، فقد لحظ ارتجافة الحاجبين وعرف أن الرجل لا ينام وأنه يصغى ، وأدرك لعبة المصاب وفهم أن برناردان لن يستسلم بسهولة ، فقد انتزع من القصر وأصبح لايرى فى كل مكان غير الأعداء ، وهو الآن ، إذ يسترد قواه، يلوذ بالصمت ويحتمى به ويحصن نفسه به بكل العناد المعروف عن الفلاح النورماندى .

- حسناً يابرونو .. دعنا الآن .

وجلس راوول على حافة الفراش ، وفى رفق غير متوقع وضع يده على كتف الشيخ وقال :

- هيا ياجدى .. حان الوقت لكى تفتح عينيك .. راوول دابنياك ، هل تعرفه ؟ القلب النبيل الذى أنقذك من الخطر مجازفا بحياته . ولكنه قد

لايستطيع إنقاذك دائماً .. إننى واجهت الأخطار العاجلة ووضعتك فى مكان أمين ، وقدمت لك طبيبا وممرضة ، ولكن يجب أن تساعدنى الآن .

راحت عينا الشيخ المسكين الرماديتان النصف مطبقتين تحت اهدابه المسدلة تفحصان الرجل المجهول المنحنى فوقه والذى يحس بسلطانه كانعكاس نار الموقد، فى حين عاد راوول يقول :

- يجب أن تساعدنى ، وليس ذلك لصالحى وإنما لصالحك أنت ، فأنت تعلم تماما أن أصدقاءك الثلاثة الذين عذبوك فى المحجر لن يتركوك فى أمان .

وأمسك برناردان من كتفيه وانحنى فوقه ، كمصارع يلقى بغريمه على الأرض ، واردف يقول فى لهجة خطيرة :

- فإننى أعرفهم .. وأعرف قسوة زعيمهم ، ومهما فعلت فسوف يعثرون عليك . وسأصل عندئذ بعد فوات الأوان .. ولكن إذا تكلمت فقد أستطيع إنقاذ كل شئ .. دم من اذن ؟

تسارعت أنفاس العجوز وفتح فمه ، وأدرك راوول أن عملاً غامضاً يدور فى هذا الذهن الذى لازال متأثراً من العذاب الذى تعرض له ومن الإرهاق .

- دم من ؟

خفض برناردان جفنيه فى بطء وبدا وجهه متجمدا تحت غضونه كوجه الميت ، واعتصم بصمته منطويا على سره . وانتظر راوول قليلاً ثم اعتدل واقفا فى سكون، وجفف بمنديله العرق الذى يتصبب من جبينه وتمتم يقول :

- أنا رجل صبور، ولايمكن أن تتصور إلى أى حد أستطيع الصبر

. سـأنتظر الوقت الذى لابد منه .. ومقـامك هنا لابأس به ، وسـأظل محتفظا بك . ولكنك لست أسيرا .. إنما أنت تحت المراقبة فحسب .. عندما تريد أن تتكلم تكفى إشارة بسيطة وتجدنى أمامك .. وعندئذ نستطيع أن نفعل معا عظائم الأمور . وسوف ترى . وأنت على حق . ولكن خلف راوول عشرة رجال آخرين .. وعشرون أسطورة .. إن تاريخ فرنسا أمامك فى هذه الغرفة .. مرحى يابرناردان ، أنت رجل محظوظ لأننى اهتم بك ، وأقسم لك أننا سنمضى معاً حتى نهاية المغامرة .. بل إننى سأعترف لك بشئ .

وأمسك راوول فإن أنفاس الشيخ انتظمت .. غلبة النوم ، واذ رأى راوول ذلك خرج على طرفى قدميه ، وكان برونو ينتظره فى الردهة فسأله : حسناً .

- إن العجوز شديد المراس ، ولكن سينتهى به الأمر إلى أن يتكلم . استمر فى مراقبتك له . أما أنا فسوف استبدل ثيابى ثم أمضى إلى القصر .

وأخذ راوول من سيارته حقيبة سفر ضخمة ، وبعد عشرين دقيقة كان قد اتخذ هيئة صحفى شاب يرتدى جاكت من الجوخ وتتدلى من كتفيه آلة تصوير .. وعانق فيكتوار ثم قال : سأعود الليلة ياعزيزتى فيكتوار فكفى عن التأوه والنواح .. أقول لك اننى لا أتعرض لأى خطر ، والدليل اننى أريد أن اتناول عند عودتى طبقاً من العجة اللذيذة التى تجيدين صنعها .. وجلس فى سيارته التى يعلوها الغبار وانطلق فى سرعة عادية فى طريقه إلى يونرفيل .

كان يجب أن يجمع شتات أفكاره وهو أمام عجلة القيادة إذا ما أراد أن يبنى خططه للمعركة، ولكنه فى هذه المرة كان لابد له من أن يعترف بأن الموقف يتجاوز كل قدراته ، فالمذكرات بين يدى البارون ،

والشيخ يرفض أن يعيد ماسبق أن أدلى به تحت لسعة الألم ، فأين يوجه الهجوم ؟ وإلى أين تقوده هذه الزيارة التى يزمع أن يقوم بها للقصر.. كان راوول يتخبط ، وأحنقه شعوره بالعجز فى حين أن سرا هائلاً يتعرض لأن يكتشفه بعض المجرمين الأشرار الذين لايميزهم عنه شئ غير أنهم لايتورعون عن استخدام العنف .. ولاريب أن هذا السر هائل حقاً لكى لايتردد البارون فى التعذيب والقتل كما لو أن الوقت لايسعفه وكما لو انه إذا مامضى تاريخ محدد ولم يهتد إلى هذا السر يكون الأوان قد فات ، وما كان لشئ آخر أن يثير حنق راوول هكذا .. كان السؤال يدور فى رأسه دوران محرك السيارة .. دم من ؟ دم من ؟ كان السر يدور حول الدم ويتسبب فى العنف والموت .

وأدخل سيارته عند مدخل يونرفيل ومضى إلى القصر فى خطى وئيدة غير مكترث بحر الصيف، وفى منتصف الطريق اضطر لأن يبحث عن مكان يلجأ إليه على حافة الطريق لكى تمر سيارة تنطلق بأقصى سرعة.. ومع ذلك فقد وجد من الوقت متسعا لكى يعرف الرجل ذا الحاجبين الكثيفين والوجه الصارم الذى يجلس بجوار السائق، وتذكر الوجه الذى رآه على ضوء مصباحه الكهربى فى الليلة الماضية فى القصر.. هوبير فيرانج .. وراق له ذلك فان غياب فيرانج سيترك له مطلق الحرية .. وأحس بالقوة والنشاط وعاد يمشى.. وكان هناك شرطى يتحدث مع امرأة قروية تحمل دلوا من الماء فاقترب راوول بادى الفضول كالصحفى الحقيقى وقال فى رفق وفى مرح :

- صباح الخير.. ريشار ديمون ، صحفى بجريدة ايكو دى فرانس .

سكت الآخران وقد بدا عليهما الإنفعال .. وألقت المرأة دلوها

وجففت يديها .. وحياه الشرطي . وقال راؤول :

- سمعت القوم يقولون إن رجلاً اختفى . وكنت أمر بهونفلير فرأيت أن أتحرى الأمر قبل أن أعود إلى باريس .

وكان يبدو صادقاً ، وانتزع عطفهما واعجابهما بحيث لم يسع الشرطى إلا أن يقول:

- أوه ، كل مافى الأمر أن الأب برناردان طاب له أن يسرى عن نفسه قليلاً وآثر أن يختفى بضعة أيام كما سبق أن فعل ، أليس كذلك ياأبولين ؟

هزت أبولين رأسها وهى تشعر بشئ من الأرتباك إذ دعاها الشرطى باسمها المجرد أمام رجل غريب ، وقالت : لاداعى للاهتمام فهو لم يعد يحتفظ بكل قواه العقلية .. وسيعرف كيف يعود وحده .. إن مواطنيك الباريسيين لديهم مشاغل أخرى بالتأكيد .

وعاد الشرطى يقول :

- إذا أردت نصيحتى فالزم الصمت فإن مسيو فيرانج لن يروق له أن تضخم الصحافة مثل هذا النبأ التافه .. ثم إنه طويل البا ع ولن يقف ساكتاً .

- لم أكن أعرف هذا القصر .. إنه رائع .

اصطبغ وجه أبولين سرورا ، وفتل الشرطى شاربه وقال :

- أجل .. وإن القوم يأتون من بعيد لرؤيته ولكن مسيو فيرانج لايسمح لهم بزيارته ، وإن كان هذا يسعد الأب برناردان ، فهو يعتبر القصر قصره ، وله العذر فى ذلك فقد قضى فيه كل عمره .

وتدخلت أبولين فقالت : بل إنه ولد فيه .

أخرج راوول آلة التصوير من جرابها والصق عينه بعدستها ثم

قال : وكيف السبيل إلى مقاومة هذه الإبتسامة الفتية وهذا الظرف البالغ ؟

وقالت أبولين : يجب أن استأذن الآنسة .

وقال الشرطي : الآنسة لوسيل ، ربيبة مسيو فيرانج .

وبينما كانت أبولين تمضي إلى القصر استطرد وهو فخور بأن يظهر لصحفي باريسي أن الشرطي يمكن أن يكون شيئاً آخر غير الشخصية الكاريكاتورية التي يتندر الناس بها :

- وهي فتاة فاتنة لقيت الكثير من المصائب ، فقد فقدت أبويها منذ سنتين بطريقة غبية ، فقد غرقا أثناء نزهة في البحر ، ويبدو أن جاك فيرانج كان مهندسا ينتظره مستقبل عظيم ، باع الكثير من الاختراعات للامريكيين وأصاب ثروة كبيرة في بضع سنين . وكان القصر معروضا للبيع فاشتراه . ولكن يبدو أن هذا القصر لايجلب الحظ لأصحابه ، فقد فتشوا الساحل كله ولم يعثروا حتى على الحطام . كان زورقا شراعيا صغيرا طوله ستة أمتار، وكان مسيو جاك مغرما بركوب البحر. أرأيت إلى عجائب الصدف ؟ عندما كانا يخرجان للنزهة كان من عادتهما أن يصطحبا الآنسة لوسيل معهما دائماً . لازلت أذكر تقرير ضابط الساحل ، وقد أثارتني هذه النقطة في ذلك الوقت . كانا يصطحبانها دائماً ولكنهما في ذلك اليوم بالذات تركاها في القصر .

كان راوول يصغي في اهتمام كبير، وكان ذهنه يسجل كل صغيرة وكبيرة ، يفحصها ويحللها ويبوبها في ذاكرته العجيبة . وقال يسأل الشرطي : ألم يعثروا على الجثتين أبدا.. إن البحر يلفظ الجثث عادة .

- لم يلفظها تلك المرة ، ولكن الشئ الذي يثير الحزن أكثر من غيره هو أن الفتاة المسكينة أصابها المرض على أثر هذا الحداد. ولم يعرف

أحد سبب علتها ولكنها كانت لاتذوق الطعام ولا النوم كما تقول أبولين .. وكانت تقضى أياما برمتها على مقعدها المستطيل فى البستان ، وصحيح أن البيت لايدعو إلى المرح ، فإن مسيو هوبير، القيم يقضى وقته فى المصنع فهو يملك مدبغة للجلود فى بون اوديمار، والفتاة المسكينة دائماً وحدها . هناك عمها الفونس طبعا ولكن ما من أحد يراه أبداً ، ومع ذلك فهو لايقيم بعيداً، فقد ورث البيت الذى كان المهندس يقيم فيه قبل أن يشترى القصر .

صاح راوول وهو يضحك :

ـ ولكنك تعرف أكثر مما يعرفه أى محام .

ابتسم الشرطى بدوره وقال :

ـ هذه مهنتى . ثم إن آل فيرانج من علية القوم ، ولهذا فإن الجميع يعرفون عنهم كل شئ تقريباً .

ـ وهذه الطفلة التى تختفى هناك ، خلف حوض الزهور .. من هى ؟

ـ آه . هى فاليرى ، حفيدة الشيخ برناردان . وهى الأخرى يتيمة ، وجدها يقسو فى معاملتها ، ولكنه يعبدها ، ولهذا السبب بالذات لا أفهم لماذا رحل دون أن يخبرها أين هو ذاهب .

عادت أبولين فى هذه اللحظة وقال : إذا تكرم السيد أن يتبعنى فإن الآنسة يسرها أن تتحدث إليه .

قال الشرطى : أنت رجل محظوظ .

بسط الصحفى المزعوم يده إليه وقال : أشكرك مرة أخرى ، ولا تخف ، فسوف أكون كتوماً .

وأمسك بدلو الماء وقاوم أبولين التى أرادت أن تأخذه منه قائلاً :

- دعيه .. دعيه .. سأرده إليك فى آخر الممر .

كان ذلك الصحفى رجلا ممتازا وخدوما ولطيفا ، فكيف لاتسرع أبولين وترد على اسئلته :

إنها تعرف أن الصحفى يجب أن يكون فضوليا ، ولهذا راحت تبوح له بكل ماتعرفه. نعم ، إنها خادمة وطاهية فى نفس الوقت ، وزوجها اشيل ، يعمل بستانيا وسائقاً فى وقت واحد . أما العجوز برناردان فإن وظيفته غامضة ، فهو يروق له أن يقول عن نفسه أنه رئيس الخدم لأن هذه الصفة كانت تعيد إلى ذهنه الأيام الخوالى .

"وهو رجل غريب الأطوار حقاً ، ويجب أن تراه وهو يأخذ كل شئ مأخذ الجد ، وأن تسمعه وهو يبرر لنفسه .. رجل مزعج .. وحفيدته المسكينة ! إنه يبذل كل جهده لكى يضيع عليها المدرسة فى أغلب الأوقات . يقول إنهم لايعلمونها هناك شيئاً غير الأكاذيب .. شيخ مجنون .. والآن ، أعد إلى دلوى فقد وصلنا" .

أفضى بهما ممر يدور بالقصر إلى البستان . كانت لوسيل هناك ، تحت شجرة كستناء ، متمددة فوق مقعد مستطيل والكلب عند قدميها . وكانت تقرأ جريدة . وكانت أكثر جمالاً وأكثر فتنة مما رآها فى الليل وهى سادرة فى نومها . واعتدل البولدوج على قوائمه المعوجة وراح يزمجر .

- أرقد يابولوكس .

كانت تتكلم بذلك الصوت المتعب الذى يتكلم به المرء الذى يفقد الأمل فى الشفاء وألقت الجريدة فوق ركبتها ورمت الزائر بابتسامة حافلة بحزن مثير ، وانحنى راوول وقال :

- ريشار ديمون ، من جريدة ايكو دى فرانس .

وقالت لوسيل : أبولين ، امضى وهاتى مقعدا .

ولكن راوول أسرع يقول محتجاً : لاداعى لذلك . عندما يكون أمام المرء مرجة جميلة مريحة كهذه فإنه يكون فى غنى عن المقعد.

وجلس فوق العشب، عند قدمى الفتاة ، بدون تكليف ، ثم ربت على رأس البولدوج ، بين أذنيه ، وسال لعاب الكلب لفرط سعادته واستمرا المداعبة . ولاحظت لوسيل ذلك فى دهشة وتمتمت :

ـ هذا غريب . ومع ذلك فإن بولوكس شرس .

ـ هذه مهارة اليد ، ثم إننى أعرف كيف أعامل الحيوانات والرجال .. لست أخرق إلا مع الفتيات .

وانفجرا ضاحكين معا، واكتسبت وجنتا لوسيل قليلاً من اللون . وفكر راوول "اضحكى يا جميلتى، ولاتفكرى فى أيام الشقاء .. أريد أن تحبى الحياة وأن تفتتنى بها وأن تنظرى إلى بهذه النظرة الساحرة دائماً .." .

واقتطف زهرة من زهور اللؤلؤ ، وأخذها بين أسنانه ، وقال :

ـ كان يسعدنى أن أهنئك على هذا القصر الجميل ولكننى علمت أنك لقيت فيه من التعاسة والشقاء أكثر مما لقيت من سعادة وهناء .. ولهذا يجدر بنا أن يقتصر حديثنا عنك أنت .

ـ أوه .. عنى أنا .. أنا لست شيئاً .. مادمت تعرف كل شئ فلابد أنك تعرف .

وتهدج صوتها فقال ريشار ديمون المزعوم : هيا ، تشجعى .. أنت فى السابعة عشرة .. ولاترين غير وصى متذمر وخدم مذعورين وذلك الشيخ المجنون برناردان .. تشعرين بأنه لم يعد لك ماض ولا مستقبل ويتملكك الضجر بحيث تدعين المرض لكى تشعرى بشئ من الرعاية

والاهتمام عوضا عن المحبة والحنان .

كانت لوسيل تصغى إليه فى دهشة متزايدة ، واستطرد راوول يقول :

ـ ولكنك ذات مواهب متعددة ، وإذا كنت تتوهمين أوهاماً كاذبة ، وإذا كنت تتصورين أنك أشقى المخلوقات .

قاطعته لوسيل قائلة : ولكننى أشقى المخلوقات .

وتصاعدت الدموع إلى عينيها، وتمتمت : أوه ، لماذا لم يصطحبانى معهما فى ذلك اليوم ؟ لماذا ؟ لكان الموت قد طوانا نحن الثلاثة .. لقد كنا سعداء جدا .

قال : تكلمى .. استمرى ، فأنا صديقك .

وأخذ يدها وضغط عليها فى رفق ليعيد إليها قليلاً من الدفء ، وعادت تقول فى هدوء أكثر :

ـ ماتا فى التاسع عشر من أغسطس ، بعد تسعة عشر عاماً ، يوما بيوم من أول لقاء لهما.. وهو لقاء مأساوى حقاً ، فقد اشترى أبى قبل زواجه بيتا خلف كنيسة سانت ادريس ملحقا به بيتا آخر صغير للصيد وهو عبارة عن كوخ ملتصق بالصخور أمام خليج صغير لم يكن يؤمه أحد على الإطلاق وكان يستجم فيه ويرسم لأنه كانت له كل المواهب . وذات يوم سمع بعضهم يصرخ طالبا النجدة .. كانت فتاة.. أمى المقبلة .. كانت فى بلاج مجاور فجرفها التيار، ولو لم ينقذها أبى فى الوقت المناسب لغرقت لامحالة .. ولم يمنعهما ذلك من الموت غرقا على كل حال .. بعد تسعة عشر عاماً .. هل تؤمن بالقدر يامسيو ديمون ؟

ـ طبعا ، مثل جميع الذين تحفل حياتهم بالمغامرات ، وماذا حدث

لذلك البيت الصغير ؟ هل باعه أبوك ؟

- كلا بل احتفظ به للذكرى . ولكنه لم يكن يختلف إليه . ولاريب أنه في حالة يرثى لها الآن .

راح راوول يفكر ، وبدأ بتلك الغريزة العجيبة التى أتاحت له كسب كثير من المعارك يخمن أن خلف هذه المصادفات شيئاً كئيباً ، ملتوياً ، أشبه بمؤامرة . قال : هل يمكننى أن أزور هذا البيت ؟

أجفلت لوسيل على الفور وقالت :

- إننى بحت لك بسر ولا يجب أن يعرف به أحد .

- اطمئنى .. لن يعرف احد .

وكانت بهجته تفيض بالاقناع بحيث اطمأنت لوسيل على الفور .

- سر فى طريق الصخور نحو ثلاثة كيلو مترات أو أكثر قليلاً بعد كنيسة سانت ادريس ، وهناك تجد دربا منحدراً والبيت المعروف باسم "الصخرة الكبيرة" .

- سؤال آخر .. أظن أن أمك كانت عاطفية جداً .. ورومانسية جداً ؟

- نعم ، وانني أشبهها كثيرا .

قال راوول يحدث نفسه : طبعاً .. بدأت أفهم .

ووثب على قدميه وهو ينهض متلهفا .. أحس بالرغبة فى إدهاش الفتاة وفى النضال من أجلها حتى يعيد إليها البسمة ، وفى نفس الوقت أحس بأن خطرا خفيا يحوم حولها . وكان الإحساس من القوة بحيث ألقى نظرة فاحصة على الغابة ، ولكن لو أن أحداً كان يختبئ على مقربة منهما لنبح الكلب .

وقال يسأل الفتاة : هل تثقين بى ؟

رفعت إليه نظرة حزينة من عينيها البنفسجيتين وقالت فى تفكير :

- إننى لا أعرفك ياسيدى ، ولكنك تختلف كثيراً عن الآخرين .. نعم . إننى أثق بك .

- يمكنك ذلك ، بل يجب أن تثقى بى . والآن اصغى إلى .. عودى إلى البيت ، ولاتتحدثى عن زيارتى مع وصيك . وغدا ، فى تمام الساعة الثالثة سوف نلتقى . ليس هنا .. بل خارج القصر .. عند ناصية البستان والطريق قد يكون لدى الكثير لأخبرك به . كلا ، لاتسألينى فلازال الوقت مبكرا . إلى اللقاء أيتها الفتاة العزيزة . ابتداء من الآن ، ومهما يحدث ، قولى لنفسك إنك لست وحدك وإن هناك شخصا على مقربة منك ، يسهر فى الظلام ولن يسمح لأحد أن يمس شعرة من رأسك .

- هل تظن إذن اننى فى خطر ؟

وضع إصبعا على شفتيه وقال : غدا .. الساعة الثالثة .

•••

قرية برفيل .. والبحيرة على نهر السين ، وطريق الهافر .. كان فى مقدور راوول اجتياز هذه الطرق مغمض العينين طالما بدت له مألوفة .. ألهذا السبب كان يشعر بكل هذا النشاط وهذه الحيوية ؟ وقال يحدث نفسه :

- "هيا ، كن صريحا .. لاتحاول أن تخدع نفسك .. اعترف أنك سعيد ، سعيد بصورة غير معقولة لأنك تريد إنقاذ هذه الفتاة اليتيمة الضائعة.. لأنها جميلة ولأنك لوبين .. لأنك غبى لايرجى صلاحك ورغم كل شئ فإننى أحب نفسى كما أنا "..

واجتاز إحدى القرى والطيور تحلق فوقه مذعورة . واستأنف

منولوجه قائلاً :

- ليست مصادفة أن يموت جميع أصحاب قصر يونرفيل الواحد بعد الآخر بطريقة مأساوية ، وليست مصادفة أن يعذب البارون الأب برناردان، فهل هناك علاقة تربط بين كل هذه الأحداث ؟ وماهو الخطر الذى تتعرض له لوسيل .. لا أدرى ، ولاداعى للعجرفة . إن مثل هذه الأحداث لا يمكن أن تجوز على فإننى أملك أثراً صغيراً وهو أن جاك فيرانج وزوجته قد لقيا مصرعهما قتلا.. ولكن كيف ؟ ولماذا ؟ هذا أمر غامض .. القديس جان يخلف يعقوب ، ودارتنيان .. حسنا . لا داعى للإصرار .

وبلغ صخور سانت إدريس .. واشارت له إحدى الفلاحات إلى كوخ "الصخرة الكبيرة" كيلو متران آخران ويرى الدرب . ولكن يجب أن يتوخى الحذر لأنه وقعت انهيارات أثناء الشتاء الماضى . وترك راوول سيارته فى أحد المنعطفات وتابع طريقه على قدميه . وعادت إلى ذهنه ذكريات حاول جاهدا أن يقصيها عنه ، فقد خيل له ، وهو فى بقعة أخرى ، غير بعيدة عن المكان الذى هو فيه الآن ، بينما كان يبحث عن مأوى يخفى فيه شدته وضيقه إن كل شئ قد انتهى ، وأن الحياة ، لن تواتيه بعد ذلك بأية بهجة أو أى مرح . ولكن رجلا مثله كان خليقا بأن يجتاز فى حياة واحدة حشدا من الحيوانات المتتابعة . وأحس بأعجوبة بأنه جديد وانه ينبض نشاطا وحيوية . لن يستعصى عليه سر يونرفيل مدة طويلة فما من شئ استعصى عليه حتى الآن .

انحدر الشاطئ الصخرى ، ولم يلبث أن اكتشف الدرب الذى ينحدر خلال أرض معشوشبة وقال :

- ياللشيطان .. لقد كان السيد فيرانج مغرما بالتسلق .. ولكن سرعان ماتحقق أن بالطريق نتوءات طبيعية فى مقدور الإنسان أن

يعتمد عليها فى هبوطه وصعوده ، وتجعل الطريق آمنا بعيدا عن الأخطار رغم الفضاء الذى يبدو كأنه يكمن دائماً للمتسلق . ولم يلبث أن بلغ بلاجا ضيقا محصورا بين نتوءين صخريين تهيمنان عليه من عل .. وكان الإحساس بالوحدة والعزلة يكاد يكون مضنيا ، وكانت الصخور تمتد حتى الأمواج الأولى .. ورأى على اليمين كوخا بدا له أنه يستند على الصخور .. وكان لابد للمرء من بلوغ البلاج لكى يراه .. ودار حوله وتحسس مصاريعه بيده ، وكانت لاتزال متينة ، وكان الباب موصدا .. وقد حولت الرطوبة جدران الكوخ إلى اللون الأخضر .. ولكن الكوخ نفسه قاوم تقلبات الجو المختلفة رغم إحساس الهجران الذى يبدو عليه .. وبين ظهر الكوخ والصخور مكان ضيق مزدحم بالانقاض والبقايا : أدوات قديمة ومجاديف وسلم نخره السوس وأكله الملح وصناديق للصيد .. ووضع راوول يديه على خاصرتيه وراح يفحص فى تفكير المنظر الغريب الذى أمامه ، وتمتم :

ـ كل هذا سخيف .. سخيف .. ولكنه جذاب .. يستطيع من يعيش هنا الاستغناء عن العالم وما فيه .

وأخرج من جيبه علبة مسطحة تحتوى على عيدان معدنية مختلفة الأشكال وراح يعالج القفل الذى قاومه كثيراً لفرط ما علاه من صدأ ، وانفتح الباب أخيرا ودفع إليه بنسمة من الهواء المخزون تفوح بالعفن .. ودخل .. وألفى نفسه فى غرفة لاريب أنها كانت تستخدم فيما سبق لتناول الطعام وللنوم ، فقد كان على يسارها أريكة كبيرة وفى آخرها حامل للرسم ، وكانت هناك لوحات لاتزال معلقة لصق الحائط .. وعلى اليمين مائدة لأثنين والأطباق معدة فوقها .. وفى بين الأطباق سيقان مسودة فى طريقها إلى التلف .. وفى الموقد قدر انهار فوقه كومه من الرماد.. وقال لوبين :

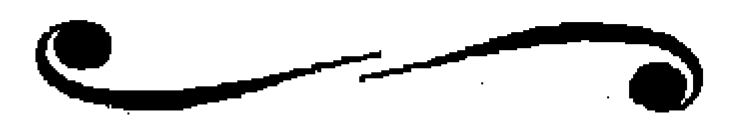
ـ "كأننا فى مدينة بومبى".. كان كل شئ كئيباً ، لزجا فقد الحياة بطريقة بشعة . ولكن كان الشئ الذى أثار قلقه أكثر من أى شئ آخر هو تلك المائدة المعدة كما لو أن قليلاً من الحب دخل الغرفة ولازال بها حتى الآن متحدياً الزمن .

خلع لوبين قبعته بحركة آلية ثم تقدم بضع خطوات وفحص الأرضية ، وكان يعلوها الغبار ولاتزال عليه آثار الأقدام .. لم يكن هناك سبيل للخطأ .. كانت آثار رجل وامرأة يسيران جنبا إلى جنب .. وفكر : جاك فيرانج وزوجته .. أرادا الاحتفال بذكرى أول لقاء لهما فأقبلا إلى الكوخ ، وهذا هو السبب فى أنهما لم يصطحبا ابنتهما معهما ، فقد كان العيد عيدهما ، ولم تكن النزهة فى الزورق إلا ذريعة .. أرادا أن يكونا وحدهما لاثالث لهما و.. فحص راوول الأرض من جديد وقال :

ـ ولم يغادرا الكوخ .. هذا غريب !

كانت الآثار تتشابك من الباب حتى المائدة حتى الموقد ثم تمضى نحو غرفة أخرى تخفيها ستارة ، ولاريب أنها غرفة المطبخ .. ولكنها لم تعد منها فهل هناك باب آخر لمغادرة المطبخ ؟

وتقدم راوول وقلبه يخفق شيئا ما .. ماالذى يختفى خلف هذه الستارة ؟ .. وازاحها، وفجأة ، تهربت الأرض تحت قدميه .. وكان الأمر سريعا بحيث أن راوول لم يسعفه الوقت لكى يمد ذراعه ويبحث عن نقطة ارتكاز ، ووقع بشدة ، ولكن السقطة كانت قصيرة خففتها الرمال .. وكان باب الفخ قد عاد مكانه بتأثير زمبرك خفى فى صوت مدو كالفخ حين يطبق على فريسته .





كان الظلام شاملا .. وجلس راوول وتحسس نفسه .. لم يصب بأى جرح .. ومد يديه حواليه ولم يلتق فى كل مكان بغير الرمال .. كان موجوداً فى قبو ، وكان البيت مشيدا على اساسات خفيفة ، ومع الزمن تغلبت الرمال على الاستحكامات فجأة وبدأت تتسرب مياه البحر داخل حطام .. ووقف راوول واشرأب على قدميه بقدر المستطاع ، ورفع ذراعا إلى مافوق رأسه ولم يلتق إلا بالفراغ .. وكان المصباح الكهربى الذى لايفارقه مطلقا قد تحمل الصدمة ولم يعكس غير شعاع خفيف ، ولكنه كان من الكفاية لكى يضئ باب القبو .. لم تكن به أية حلقة ولا أية خشونة .. كان الزمبرك القوى الذى يعيد الباب الخشبى القلاب إلى مستوى الأرض مركبا فى تجويف من البناء لا يمكن الوصول إليه.

أدار راوول شعاع المصباح الكهربى حوله .. كان القبو واسعاً وشاغراً تماماً.. لم يكن به أى مقعد أو أى صندوق يمكن الوقوف عليه للوصول إلى الباب القلاب .. وحتى لو كان هناك مايستطيع أن يقف عليه ويصل إلى الباب فما كان فى مقدوره أن يفعل أى شئ لأن الباب نفسه كان أملس وما كان فى استطاعة أى مخلوق أن يزحزحه على الإطلاق .. ومع ذلك فقد انعكس نور المصباح على شئ تألق فى أبعد ركن من القبو ، فاقترب راوول منه وما كاد يفعل حتى تفصد العرق من جبينه وقد تملكه القلق ، فإن الشئ الذى تألق لم يكن غير رأس

ميت .. جمجمة بيضاء كعظمة سمك السبيرج التى يلقاها المرء على الساحل .. ومن طبقة الرمال الخفيفة التى تجمعت خمن راوول هيئة هيكل عظمى يعانق هيكلا آخر، أقصر قامة من الأول جمجمته لاتزال تلتفت نحو وجه حبيب .. مات العاشقان أحدهما فى حضن الآخر ، وكل منهما يبتسم لصاحبه ابتسامة الأبد .

اطفأ راوول مصباحه .. هذا الرجل الذى واجه العديد من الأخطار وسخر من الموت، المرة بعد المرة أوشك أن يقع فريسة لانهيار عصبى .. أدرك فى لحظة واحدة الحقيقة التى يتوقعها.. فقد لقى جاك فيرانج وزوجته حتفهما قتلا، بعد أن حول القاتل بكل صبر وكل دقة عش الغرام إلى فخ قاتل ، فإن فريسته كانا يأتيان إلى "الصخرة الكبرى" فى كل سنة ، ووجد كل وقته لإعداد الباب القلاب وهو على يقين من أنه فى اليوم المرتقب سوف يطبق على فريسته.. وقد نجحت مكيدته البشعة ، ولسوء الحظ جاءت الآن فريسة ثالثة ووقعت فى الفخ ، ولامفر لها الآن من أن تشارك الفريستين السابقتين مصيرهما ، فما الجدوى الآن من الصياح والصراخ والاستنجاد ؟ وماجدواه من أن يفعل ماسبق أن فعله الزوجان من قبل عبثاً ؟

تمدد راوول فوق الرمال الرطبة وعقد يديه خلف عنقه وحاول أن يفكر فى هدوء .. لم يكن هناك من يعرف أنه قادم لزيارة هذا البيت ، وعليه فلن يخطر لأحد أن يهبط إلى هذا البلاج وأن يفحص المكان ويدخل البيت .. كانت هناك طبعاً السيارة التى تركها فى طريق الصخور ، وسوف تثير دهشة الناس ويذكرون أمرها للبوليس .. ولكن التحقيق لن يتعدى أكثر من ذلك ، ولايبقى أمامه الآن إلا أن يحفر نفقاً ، ولكن بماذا ؟ بيديه ؟

خلع راوول سترته وطواها بعناية وجثا بجوار الجدار وبدأ يحفر ،

ولكنه لم يلبث أن استسلم للواقع ، فقد كانت الرمال مائعة وكانت تنساب فى الحفرة كلما ازدادت اتساعا ، وكان لابد من أن يرشها بالماء ولكن من أين له الماء ؟ ومع ذلك فقد بقى راوول على إصراره وراح يجمع الرمل بملء يديه ويلقيها بعيدا من فوق كتفيه .. وأفلح فى إحداث حفرة صغيرة ولكنه سرعان ماتوقف وقد نال منه الإعياء كل منال.. أحس فى الظلام أن هذه الحفرة عميقة جداً وتخبط وهو يبحث عن جاكتته .. أين وضعها ؟ وتقدم وهو على ركبتيه ويده مبسوطة إلى الأمام وهو يخشى فى كل لحظة أن يمس الهيكلين .

وانتهى بأن عثر عليها أخيرا وأشعل مصباحه .. لم يكن عمق الحفرة ليزيد عن ستين أو سبعين سنتيمترا .. وقد اقتضت من هذه المسافة الهزيلة مدة طويلة وجهدا كبير .. ورأى أنه من غير أداة فى يده لن يستطيع شيئاً فقد كان هذا الرجل القوى يعرف أكثر من غيره أين يبدأ المستحيل .. وجفف جبينه وحاول أن يمزح "ليس هذا بالوقت المناسب لكى أصاب بالبرد .. آه .. من لى بكأس من الشراب" ولكن الصمت كان مطبقاً بحيث لم يسعه إلا أن يرتجف .. وجلس معتمداً بظهره على الجدار وقد شل التعب جسده .. وشيئاً فشيئاً تولد الخوف .. ولأول مرة فى حياته لم ير ذهنه المتوقد الذى لم يخنه مرة واحدة فى حياته الحافلة بالمغامرات حلا لمشكلته الحالية ، ولأول مرة فى حياته لم يعد لوبين بلوبين .

أى مجرم ذلك الذى ينازله ؟ ومن ذلك الذى دبر ذلك الانتقام البشع وحكم على بريئين بالموت جوعا وعطشا ويأسا.. ثم إنهما كانا اثنين ، يساند كل منهما الآخر حتى اللحظة الأخيرة فى حين أنه هو.. وحده ، لانصير معه .. وأرهف أذنيه .. كان هناك صوت اصم يدوى بعيداً .. صوت البحر .. كانت الأمواج تتلاطم فوق الشاطئ الصخرى ولم يكن هناك أحد على الساحل .. لم يكن هناك غير الخوف حوله .. الخوف

المزوج بالهواء الذى يستنشقه .. إنه قوى وسوف يقاوم بضعة أيام ، ولكن احتضاره سيطول .

واستجمع قواه وهم بأن يصرخ .. ولكن الشئ الوحيد الذى أرغمه على أن يحتفظ بهدوئه ووقاره هو احساسه السخيف بأن الهيكلين ماهما إلا جمهور رغم كل شئ.. وتخيل انهما يراقبانه وأن كلا منهما يقول للآخر "إن لوبين ليس شجاعا ، إنه جبان خائف "وقال يحدث نفسه" إنهما على حق فأنا جبان وقد بدأ الخوف يسيطر على ، ولكن لو أن أمامى سببا واحد باعثا للأمل فسوف يرى العالم أجمع مايمكن أن أقدم عليه .. ولكن لسوء الحظ ليس هناك أى أمل .. إنه الحادث غير المتوقع الذى لامخرج منه .. معذرة ياعزيزتى لوسيل .. لن أكون فى الموعد الذى ضربته لك .." .

وفجأة عرته الدهشة .. إن الأمل موجود طبعا .. وهو أمل ضعيف فى الواقع .. لوسيل .. ولكنه سرعان ما أقصاها عن ذهنه.. ستنتظره لوسيل فى الساعة الثالثة، وربما تنتظره مدة طويلة ثم تعود أدراجها حزينة .. لماذا تقطع هذه المسافة الكبيرة حتى الكوخ الذى يعيد إلى ذاكرتها مثل هذه الذكريات الحزينة .. ولكن الأمل أشبه بنار صغيرة تتغذى بأوراق الشجر ، وأضعف الأسباب تفلح فى إضرامه .. فأولا لم تكن المسافة كبيرة جدا ، وهناك دراجة فى القصر ، ثم إن لوسيل سيدفعها الفضول إلى أن تعرف لماذا لم يواتها هذا الرجل الذى يبدو أنه يخشى خطرا .. ولأن هذا الرجل قد أثار قلقها، ولأنها تريد أن تراه بأى ثمن فسوف تتوهم أشياء وسوف يستقر منها العزم وتفكر :

- إنه فى حاجة إلى .. إنه فى خطر بسببى أنا ، بسبب ما رويته له عن موت أبوى .. وسوف تتذكر حديثهما والأسئلة التى ألقاها عليها "عن الصخرة الكبيرة" .. وإذا كان هذا الصحفى الظريف لم يف

بوعده بسبب بيت الصخور بلا شك .. وإذا كان قد حدث له حادث .. إذا كان قد وقع .. لابد وأن تمضى لنجدته .. سوف تغادر القصر وتسرع إليه .. وسوف تقع بدورها فى الفخ .. يا الهى .

نهض راوول وراح يدور فى سجنه ورأسه ملتهبة .. كلا .. لا يجب أن يقع هذا بالذات .. إنه يؤثر أن يموت .. كان يفضل طبعا أن يلقى حتفه تحت الشمس لغرض نبيل بدلا من أن يحتضر كالفأر فى قاع حفرة .. ولكنه سيتقبل الموت في خزى كرجل عديم النفع .. المهم أن تعيش لوسيل .

وتملكه اليقين فجأة من أنها سوف تأتى لكى تبحث عنه .. وبسط يديه إلى الأمام كأنه يريد أن يصدها ويردها بعيدا عن هذه الحفرة البشعة حيث تنتظرها عظام أبويها .. وتعثر ووقع على ركبتيه ، وراح يردد فى صوت خافت :

ـ ليس أنت لوسيل .. ليس أنت بالذات .

غلبه التعب والقلق والليل فتهالك على جنبه .. وبقى مدة طويلة خائر القوى .. وتغلب النعاس عليه أكثر من مرة .. وكان نعاسا تخللته الكوابيس .. ثم ، ولأن اليأس وثبوط الهمة لا مكان لهما عنده خرج فجأة من هذا الخدر الذى قام مقام النوم ، وصحا وامتلأ نشاطاً ، وتأهب لمواجهة الخطر.. ونظر إلى ساعته.. الثامنة.. لابد أنها الثامنة صباحا .. ياللشيطان ! أن يفوتنى العشاء فلا بأس ولكن الإفطار .. ليس هذا من الصحة فى شئ .

وكان يتكلم فى صوت مرتفع ليفتعل قليلا من الضجة ، ويقطع هذا الصمت الكئيب الذى لايمكن مقارنته بأى صمت آخر.. ولم يفكر فى تجديد محاولته ولكنه بدافع التحدى حاول أن يقوم فى الظلام بتمريناته الرياضية التى يقوم بها كل صباح وهو يقول :

- " فلأمت على الأقل وأنا فى صحة جيدة " .

ثم رجع إلى الحفرة وجس الأرض .. كانت الرمال قد استعادت مكانها من الحفرة ولم تعد هذه الأخيرة غير فجوة خفيفة لاعمق لها .. لم تكن هناك فى الواقع أية وسيلة أو جدوى فى حفر نفق .. إن المنفذ الوحيد هو الباب القلاب ولا شئ آخر.. وعاد إلى الدائرة الجهنمية لنفس المشاريع ونفس الاخفاقات وفكر "والآن .. سأركز تفكيرى فى لوسيل .. ولكن ما أغبانى ! ما أدرانى أن هذه الصغيرة تحفل بى؟"

وجلس مرة أخرى وظهره إلى الجدار واسترسل في مونولوجه : إذا كانت لاتحفل بى فذلك لأنك لاتفكر فيها بتركيز كبير.. ولكن مهما يكن فلا خيار لك . لابد لك من أن تركز تفكيرك فيها وإلا فلا أمل لك ، ركز فيها واعلم أن الحشرات تعرف بعضها البعض من مسافات كبيرة ، وأنت أكثر من حشرة طبعا، فإذا أنت ثابرت وركزت مدة طويلة فسوف تحس بوجودك حولها، وسوف تطيعك بحيث تحتل أفكارها تلقائيا.. مرها أن تأتى هنا وعندما تسمعها فسوف تصيح لكى تحذرها.. ليست هناك وسيلة أخرى ، ولكننى أحذرك .. سيكون الأمر صعبا جدا .. أقسم لى أنك لن تنام بعد الآن .

مد راؤول ذراعه وأفلتت منه سبة ، ثم عكف على التركيز .. لم يكن ذلك صعبا جدا، بل كان يكفيه أن يلازم لوسيل فى أفكاره وأن يتبعها فى غدواتها وروحاتها، بين غرفتها وغرفة الطعام ، وأن يمسك المقعد المستطيل معها فى نفس اللحظة وأن يدعو بولوكس ، وأن يعبر غرف الطابق الأرضى الفسيحة لكى يمضى إلى البستان ويجلس فى الظل ويحلم فى ذلك الغريب الذى ظهر فى نفس اللحظة التى أصبحت فيها الحياة من الصعوبة بحيث لاتطاق .

ووخز راوول ظهر يده .. أهذا ما يقولون عنه تبادل الخواطر ..

ولكنك تغفو يا صديقى ، هيا انتبه وقم .. إنها هى الأخرى تقوم وتمضى لتقطف بعض الزهور.. إنها تشعر بقلق مبهم .. بسببك أنت ، لأنه بدا لك أنك تفهم كيف مات ابواها .. وهى تمضى وقتها الآن فى التفكير .. إنه يعرف شيئاً ، وتنظر إلى الساعة فى غير انقطاع .

أضاء راوول مصباحه وأخرج ساعته.. وذهل . الظهر.. هكذا حالا .. أنها ستجلس الآن إلى المائدة مع عمها . إنها تجلس أمامه فى تلك الغرفة الكبيرة ، وهى لاتشعر بالجوع . رآها فى وضوح عجيب . كانت تدعك كرة من لباب العيش بيديها الرقيقتين ، وجاء أبولين بطبق من السمك لأن اليوم كان يوم الجمعة ورائحة القلى جعلته يشعر بأن قواه تخور .. أربع وعشرون ساعة لم يذق فيها شيئاً .. وكان يقول :

- هيا ، جهد صغير آخر .. إن هذا السمك لذيذ ، ثم إنك بحاجة إلى أن تسترد قواك ، إذا كان ولابد أن تستقلى الدراجة حتى هنا . كانوا يتناولون الطعام على مهل . وكان من وقت لآخر ، ينطق ببعض الكلمات .. ودقت ساعة الحائط تشير إلى الواحدة ، ساعة تناول القهوة .. كان حلق راوول جافا .. كان يركز فى هذه اللعبة الرهيبة بكل كيانه وصعدت لوسيل غرفتها وراحت تصغى إلى أصوات القصر .. صوت محرك السيارة وهى تنطلق بعمها ، وبعد قليل ستهتم أبولين بغسل الأطباق .. الساعة الثانية .. الثانية والنصف !

تشنج راوول . وسوف يتقرر كل شئ الآن . لوسيل تخرج من القصر من غير أن يراها أحد ، وهى تخرج وتصل إلى المكان الذى تواعد معها فيه.. الساعة الثالثة .. آه يالوسيل .. ركزى بدورك وفكرى معى.. فكرى فى بقوة أكثر.. إذا كنت لا أستطع موافاتك فذلك لأننى وقعت أسيرا .. أسير .. كان يجب أن يبعث بالكلمة مع الريح .. كما لو كانت برقية .. لو أنها استطاعت أن تتلقاها فإنها سوف تأتى .. أنا

أسير .. أسير.. وتوتر جسده وراح يحرك شفتيه . كان يسمع الكلمة تندفع منه وشيئاً فشيئاً أحس بالوهن تفرغ من كل طاقته ، وجاءت اللحظة التي اضطر فيها أن يتوقف كالمصاب ينزف آخر قطرة من دمه . والآن، على لوسيل أن تبادر بالعمل .. لم يعد لديه وقت لارشادها .. إما أن تكون فى الطريق إليه الآن وإما فالموت هو الذى يقترب منه . ولكنها فى الطريق إليه حتما لأن الأمور لايمكن أن تمر بغير ذلك .. لأن أرسين لوبين لم يخلق لكى يموت وهو كالدودة .. كان لابد من المقاومة .. المقاومة .. لاجدوى من النظر إلى الساعة ومن أن يتعجل الوقت . لابد له أن يمشى كالحصان العجوز الذى يدور حول الساقية دون أن يفكر فى أى شئ .

وراح يمشى مكدودا، واهنا ، يغوص فى الرمل وإحدى يديه على الحائط ، ويدور حول الهيكلين العظميين . وجه كل إرادته إلى المشى . لو حدث لسوء الحظ ووقع فهو هالك لامحالة. لن يجد القوة لكى يصرخ عندما تأتى لوسيل وتتقدم نحو الفخ، لأنه لم يشك لحظة واحدة فى أنها سوف تأتى . ربما فى اللحظة القادمة وإنما فى اللحظة التالية لها. وراح يتنفس بقوة ويلوك الرمل الذى راح يصر تحت أسنانه وارتجفت ساقاه ووقع على إحدى ركبتيه ، وراح يدلكها مدة طويلة . ممنوع النظر إلى الساعة.. كان هذا أسوأ إغراء . أما الباقى .. الجوع والعطش فكان لايزال فى مقدوره احتمالهما، ولكنه إذا استسلم ونظر إلى الساعة ووجد أنها قد بلغت السادسة مثلا، فسوف يتمدد عندئذ وينتظر النهار ، لأنه كان قد حسب، دون أن يعترف، الوقت اللازم للقدوم من يونرفيل بالدراجة . وبذل جهدا كبيرا وأجبر نفسه على الوقوف .

وسمع الصوت عندئذ فتجمد مكانه لفرط الذهول .. هذه الطقطقة معناها أن شخصا يطأ الحصى . ووضع يده على فمه مشدوها

مغمض العينين ، واستجمع كل قواه لكى يتمكن من تحليل الصوت الخافت الذى ربما كان صوت دمه وهو يصفر فى عروقه . ولكن الصوت ازداد وضوحا وجلاء وجاء معه بالضوء وريح البحر ووعد الحياة كاصطدام بعيد لصخرة تعلن لعامل المنجم المدفون أن النجاة قريبة ، ولكنه كان يعلن على الخصوص انتصار راوول ، فهو وحده ، ضائع لاسند له ولامعين ، وبقوة ارادته فحسب ، أو ربما بكبريائه ، استطاع ، مرة أخرى أن يجبر القدر . وغمره إحساس عظيم بالفرح وتصاعدت الدموع إلى عينيه .. وهكذا ، بكى الرجل الشديد الثقة بنفسه .

وأرسل الباب صريرا وطقطقت الأرضية فوقه ، فى هدوء .

وعندئذ صرخ بكل قوته ، رغم جفاف حلقه وصاح :

ـ أهذه أنت يالوسيل ؟ .. هى أنت ، أليس كذلك ؟

ومن بعيد أجابه صوت الفتاة :

ـ نعم .

ـ حسن . لاتتحركى . أين أنت الآن بالتدقيق ؟

ـ أمام المنضدة .

يا للفتاة المسكينة ! كانت تنظر إلى الأطباق وتحاول أن تفهم .

ـ هل ترين الستارة يالوسيل ؟ إن الفخ خلفها مباشرة .. نعم .. باب قلاب ينفتح إلى أسفل عندما تدوس عليه القدم .

ـ هل أنت مصاب ؟

ياللوسيل الرائعة ! كان صوتها ينطق بالقلق .. قلق كانت تجهل معناه ولكن راوول اكتشفه وهو يرتجف .

ابتعدت الخطوات ، ولم يلبث أن سمع صوت أشياء تتحرك . وعرف

أن عذابه أوشك أن ينتهى ، وعندئذ أقدم على شئ أثار دهشته هو بالذات ، فرغم تعبه وجوعه ، ورغم أنه كان مشرفا على الموت منذ لحظات فقد نفض الرمال عن ثيابه وأصلح من هندامه وعدل رباط رقبته وثنية بنطلونه "يجب أن أحافظ على مظهرى، وإن كنت بحاجة إلى أن أحلق ذقنى ، ولكن لابأس بى تذكر أنك صحفى.." .

وسمع ارتطام السلم بالمقاعد واحتكاكه بالأرض فصاح :

ـ هل أنت متأهبة ؟

ـ نعم .

وبالطريقة التى نطقت بها الكلمة كان من السهل أن يفهم أن الجهد الذى بذلته تجاوز طاقتها .

ـ هذا حسن . إنك قمت حتى الآن بأصعب جزء وبقى شئ بسيط .. ارفعى السلم من طرفه الذى من ناحيتك وادفعى الطرف الآخر كما لو أنك تريدين أن ينزلق من تحت الستارة. سيقع طرف السلم فوق الباب القلاب ويدفعه إلى أسفل .. هل فهمت ما أعنيه ؟ هيا .. على مهل .

احتكت حافة السلم بالأرضية ، وفجأة انخفض الباب وتسلل داخل الحفرة ضوء منحرف .

ـ توقفى الآن .. انتظرى قليلاً .

وانتهز راوول فرصة الضوء الخافت واقترب من الهيكلين وتمتم : معذرة ، ولكن لن يزعجكما أحد بعد اليوم .

وأهال فوقهما الرمال بملء يديه حتى غطاهما تماما وهو يقول :

ـ ذلك لكى لاتراكما ، فارقدا فى هدوء . سوف أرعاها وأهتم بها ، وأعدكما بذلك . اننى أعرف فيم تفكران ولكنكما مخطئان سأرعاها آنويا كصديق حميم ، وسأحبها قليلا كحبيب . سأكون منذ الآن

وصيا عليها ، أما الآخر فما هو إلا مغفل . وداعا .

وقالت لوسيل :

ماذا أفعل الآن ؟

- حسنا . ارفعى السلم وأنزليه ببطء .

بعد ثلاث دقائق كان راوول يضع قدميه من جديد فى دنيا الأحياء . ورفع السلم فانطبق الباب . وأمسك بيد لوسيل وقال :

- لنسرع بالخروج ، فإننا نختنق هنا .

كانت الشمس لاتزال فى الأفق ، والبحر يهدر . ولم يكن هناك أحد على مرمى البصر . وقال :

- لولاك لقضى على . ولكننى اكتشفت شيئاً هاماً والفضل لك أنت .. قولى لى .. خلال الشهرين الأخيرين ، ألم يداخلك إحساس بأن هناك خطرا يحلق فوقك ألم يقع شئ يثير مخاوفك ؟

- كلا .. لا أرى .. ولكن هناك طبعا حادثة المركبة ...

- آه ..

- ولكنه كان مجرد . عجلة تحطمت فى أخدود وطرحت أرضا . لو أن الجواد كان مسرعا لكنت من الهالكين ، ولكنه كان يمشى خببا على عكس عادته .

- ومتى حدث هذا ؟

- منذ ثلاثة شهور .. وأنت ترى أن .

- طبعا .. لقد كان حادثا مدبرا .. كغيره من الحوادث الأخرى ، وليس صدفة أن يختفى أصحاب القصر تباعا ، وكان أبواك آخر الضحايا .. تشجعى يالوسيل .

توترت يد الفتاة على يده وتمتمت :

- إنهما هنا ؟ .. أليس كذلك ؟

- نعم . كان القاتل يعرف أنهما يأتيان كل سنة فى الذكرى السنوية لأول لقاء لهما . وقد أعد الفخ بعناية ومهارة كبيرين, ومَن الذى لا يصدق أنهما غرقا .. والدور الآن دورك أنت .

تعلقت لوسيل بذراع راوول وقالت :

- ولكن هذا شئ فظيع .

واستطرد راوول :

- وبعد أن يتخلص منك سيعتدى على عمك بدون شك.. دائماً بنفس الدهاء ونفس المصير حتى لايشك أحد فى الحقيقة . أنتم جميعا فى خطر كما كنت أتوقع .

- ولكن لماذا ؟ لماذا ؟ نحن لم نؤذ أحدا .

فكر راوول لحظة ثم قال :

- لو أستطيع الإقامة فى القصر، فى جواركم ، فسوف أعرف السبب سريعا .

قالت لوسيل :

- ليتك أتيت قبل اليوم بثمانية أيام، فلعلك لاتعرف أنه يوجد بالقصر مكتبة كبيرة جدا ، بل إن لها شهرة بين الأوساط الأدبية ، ولقد لحق عمى بخدمته فى الأسبوع الماضى سكرتير لكى ينسق ويبوب كل تلك الكتب ويضع لها فهرسا.. صفوة القول سيأتى بعد أربعة أيام .

صاح راوول : ولكن هذا رائع . وهل يعرف عمك هذا الرجل هل التقيا قبل اليوم ؟

ـ كلا ، فقد تم الاتصال بينهما عن طريق نشرة فى إحدى المجلات الأدبية .. كان مسيو ليونس كتارا يبحث عن وظيفة .

ـ هل تذكرين عنوان هذا السيد ؟

ـ نعم ، فأنا التى حررت المكاتبات .. ليونس كتارا، ١٢ شارع باتنيول بباريس .

ومتى يجب أن يصل ؟

ـ يوم الثلاثاء .

تأبط لوبين ذراع الفتاة وسار معها فى طريق الصخور ، وقال :

ـ حسناً . سوف أدبر طريقة للدفاع بمعاونة هذا الشاب فإننى أخمن أنه ظريف وأنه سيتعاون معنا .

لن تقع أية حوادث بعد الآن .. أعدك بذلك .

قالت لوسيل فجأة فى شئ من التردد :

ـ ولكن من أنت بالذات ؟

انفجر راوول ضاحكا وأجاب :

ـ تروق كلمة "بالذات" هذه .. تصورى ياعزيزتى لوسيل إننى نفسى لا أعرف من أنا . إن الصحفى رجل له مائة وجه ، ولابد له من ذلك إذا أراد أن ينجح فى هذه المهمة الصعبة . إننى أجئ وأروح وأنقب وأتنكر وأضيع قليلاً فى كل هذه المتاهات.. ولكى أكون صريحا معك ، فإننى أشعر أننى سأتقمص جلد هذا اللويس كتارا رغما عنى ، لاشئ إلا لمحاكاته وللسعادة التى سأشعر بها وأنا أقيم بجوارك .

اصطبغ وجه لوسيل بطريقة طابت لراوول وتمتمت تقول :

ـ أنت محظوظ .. لأنك حر.. لايجب أن تقدم حسابا لأحد عما فعلت

فى يومك . يخيل لى أننى لن أشعر بالمرض أبدا إذا كانت لى القدرة أنا أيضاً فى أن أكون . ولكننى أنطق بحماقات .

- حماقات ! أبدا أنت لم تكونى عاقلة قط كما أنت اليوم .. إن الإحساس بالملل هو الذى يضنيك ويؤرقك ياعزيزتى لوسيل ولكنك لن تشعرى بالملل ولا الضجر وأنا بجوارك ، وأقسم لك على ذلك .. فكرى فى مغامرة اليوم .

توقفت لوسيل عند أول منعطف للطريق والتفتت إلى الكوخ الذى أوشك أن يختفى عن الأنظار .. ووضع راوول يده فى رفق كبير على عينيها وقال :

- لايجب أن تنظرى إلى الخلف أيتها العزيزة ، إن أبويك يرقدان فى القبر الذى كانا يتمنيانه .. ثم لايجب أن يعرف العدو أننا اكتشفنا شيئا .. هيا ، تعالى . سأوصلك إلى مداخل يونرفيل .

ومضى فجاء بسيارته ووضع الدراجة بداخلها ثم أجلس لوسيل بجواره . وسألته : هل انتابك الخوف ؟

- كنت على يقين من أنك ستأتين .

- وإذا كنت لم آت ؟

- أنا الذى ألقى الأسئلة .. إننى لا أستجيب لها أبدا .

انطلق راوول عائدا إلى باريس ، وطبقا لعادته ، كان يلتهم الطريق التهاما .. تلاشى تعبه وارهاقه تقريبا ، فبعد أن غادر لوسيل عرج على حانة وتناول شطيرة بالجبن وشطيرة بالتفاح وثلاثة فناجين من القهوة، ودب النشاط فى جسمه وأحس بالسعادة . لم يكن هناك ما يعكره غير شئ واحد هو البارون أو بالأحرى سر البارون ، لأنه كان هناك خلف البارون شخص آخر يعمل . لم يكن البارون غير عميل

يعمل فى خدمة رحل آخر خفى خليق بأسوأ الفظائع ولكنه لايتمتع بذكاء خارق والدليل على ذلك حوادث يونرفيل ومغالاته فى العذاب الذى فرضه على جاك فيرانج وزوجته ، فقد كان هذا ينم عن ذكاء غير عادى ، قاس لايرحم وصبر عجيب .. صبر العنكبوت وهو يعد خيوطه والثعبان وهو يترقب فريسته وحيوانات الليل التى تضرب دون ما صوت ، بمجرد أن تتخلى فريستهم عن يقظتها وحذرها . وإذا لم يحترس هو نفسه فسوف يتلقى الضربة . إن لم يكن فى شخصه هو فسوف يتلقاها بلا أدنى شك فى أعز الناس لديه .. فى لوسيل .

وزمجر يقول يحذر العدو الخفى :

- إياك أن تلمسها .. أنا ، لابأس بى ، فإننى أستطيع أن أدبر أمرى دائما ، أما هى .. لو أصابها شئ فلن يمنعنى أى شئ بعد ذلك .. ودفعه غضبه الوليد إلى أن يترك العنان لسيارته فاندفعت فى الطريق كحجر المنجنيق . وبلغ باريس فى نحو الواحدة صباحا ومضى إلى مسكنه ببوليفار بيرير وأسرع إلى الحمام ، وبعد أن اغتسل تناول وجبة أخيرة ثم أوى إلى فراشه وهو يقول :

- ارقدى فى هدوء ياعزيزتى لوسيل . إن ملاكك الحارس ليس بعيداً .. سيخلد إلى الراحة بدوره ، فلابد للملائكة من النوم من وقت لآخر .

• • •

وفى أصيل اليوم التالى، وبعد إن تناول ليونس كتارا غذاءه المتواضع ، غادر المطعم المتوسط الذى يتناول فيه طعامه فى العادة ، وراح يفكر فى حزن وهو يمسح شاربه فى الوجبات المتواضعة التى لابد له أن يتناولها طوال حياته التى تخلو من البهجة . وكان متجهما وهو يعبر الشارع ليشترى جريدته ، وسمع صريرا حادا صادرا من

فرامل مضغوطة بشدة جعلت القشعريرة تجرى في جسده ، وتوقفت عربة فارغة أمامه وكادت أن تلمسه . وارتجف وفقد توازنه ووقع على ركبتيه . وتحامل واقفا وهو يستند على الرادياتير الملتهب . وكان السائق قد هبط مسرعا وعاونه على الوقوف وهو يقول :

- أنا آسف .

- تمتم كتارا :

- أنا المخطئ ، فقد كنت شارد الذهن .

- معذرة .. بل أنا الذى كنت مسرعا .

- مهما يكن فلم أصب بأى شئ .

- ولكننى لست متأكداً ...

- هأنت ترى .. لست مصابا بأى جرح .

- هناك الجروح الداخلية ، وهى أشد خطرا ، تعال معى .

- أين ؟

- عند طبيبى .. أريد أن أطمئن تماما .

ودفع الرجل كتارا المسكين داخل سيارته رغم احتجاجاته الخجلة ، وأبدى السائق نحوه اهتماما شديدا ورعاية أكبر ، ولكن كل هذا لم يمنعه من أن يسوق بجرأة وسرعة مما جعل السكرتير المسكين يرتجف رعبا وقلقا . وبلغا نويلى فى طرفة عين وتوقفت السيارة وهى تئن أمام احتجاجاته .

- ليس بى شئ .. يؤسفنى أن أتسبب فى كل هذا الضرر .. أنت رجل كريم جداً .

ووجد نفسه فى غرفة نورها خافت وفيها أجهزة معقدة ، وراح

المرض ينضو عنه ثيابه بالقوة .

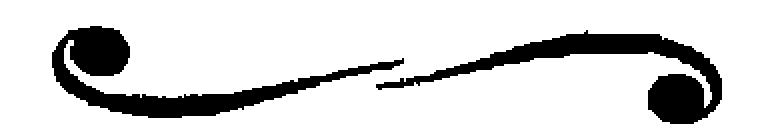
وفى أثناء ذلك ، دخل صاحب السيارة مكتب الطبيب ورفع نظارته عن عينيه وأخذ مقعدا وقال وهو يبتسم ابتسامة رقيقة :

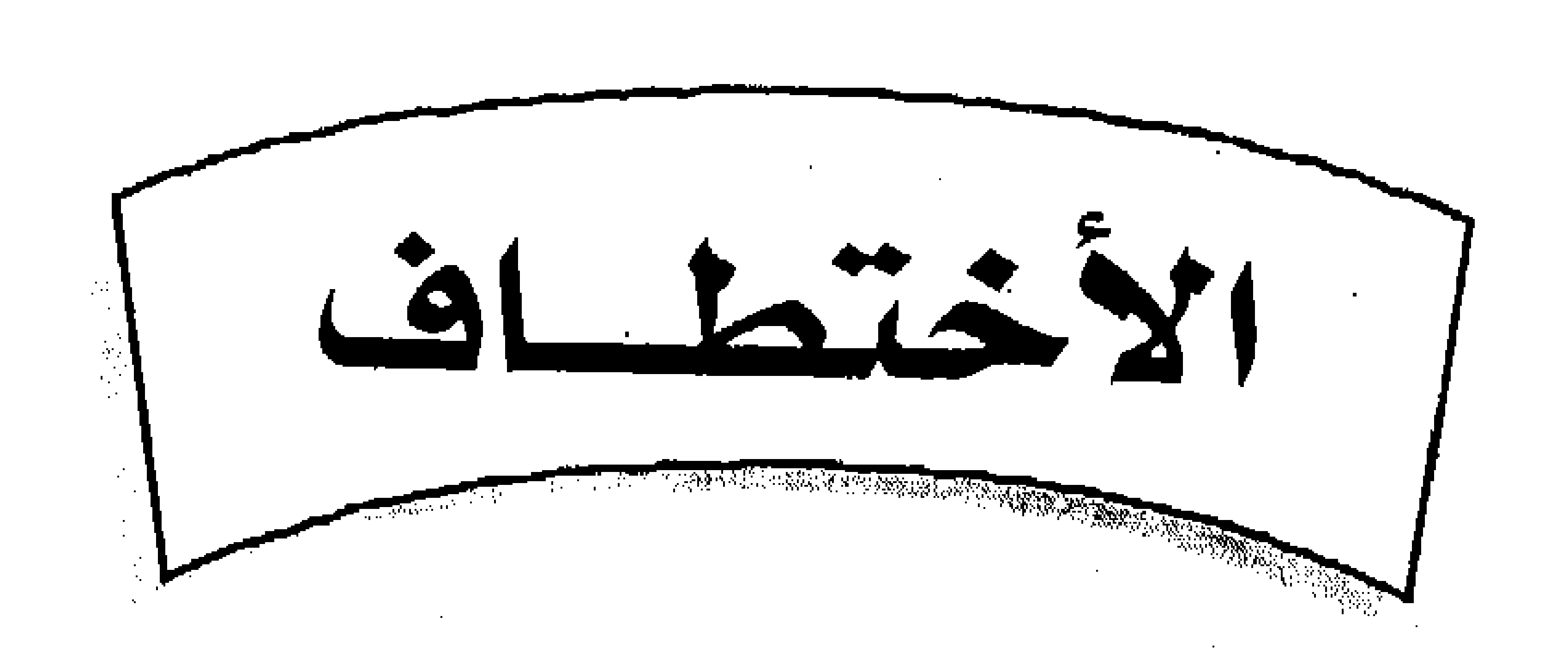
- احتفظ لى به ياصديقى .. ضعه فى الجبس لمدة ثلاثة أسابيع .. رعاية تامة وخدمة ممتازة .. شمبانيا ودجاج وكل مايريد .. وكذلك كل مالايريد .. لاترفض له أى طلب . ولكن بما أنه فقير وبما أن فقره سيمنعه من أن يتمنى أى شئ فحاول أنت أن تتمنى مكانه .

وفتح محفظته وأخرج منها رزمتين من الأوراق المالية ألقاها فوق المكتب وهو يقول :

- هذه من أجل معدات الأشعة الجديدة .. وهذه لمريضك بعد أن يشفى من طرف السائق الذى أصابه .. سيكون من الغباء بحيث يتردد كثيرا ، ولكنه سوف يقبل فى النهاية .

ونهض ثم انحنى وأردف يقول فى صوت خافت : آه .. كدت أنسى أهم شئ .. أنه سيكتب خطابا للسيد هوبير فيرانج بقصر يونرفيل .. هذا الخطاب لايجب أن يصل .. تذكر جيدا .. قصر يونرفيل .. عليك أن تلقى به فى النار .





أثار الخبر الذى نشرته جريدة "ايكو دى فرانس" أكبر الاهتمام ، كانت الأجازات على الأبواب والجرائد تعانى كسادا لقلة الأخبار التى تهم الناس ، وعلى الرغم من التوتر السياسى ، وعلى الرغم من الأنباء التى تقول أن ألمانيا تتسلح من جديد والتى يتناقلها الناس فى كل مكان من أوربا تقريبا ، فلم يكن فى استطاعة الصحفيين إرضاء قرائهم لأن الأخبار كانت عادية ولا أهمية لها ، ولهذا كان امتنانهم كبيرا نحو جاستون سيرول قبل تشييع جنازته ، فنشروا مراحل حياته الغامضة وامتدحوا فضائله المتواضعة وأكدوا أن رجال البوليس سوف ينتقمون لمقتله ..

وقد كتبت الجريدة تقول :

- "والمفتش جانيمار يتتبع أثرا هاما وقد التقينا به فى أحد الممرات بإدارة البوليس وقال لمراسلنا ردا على أسئلته إنه سيكون هناك جديد بعد ثمان وأربعين ساعة ، وأردف يقول بطريقة غامضة : ربما نتحدث عن رجل نسيناه بعض الشئ ، ويعتقد البعض منا أنه مات ، ولكننى أضعه نصب عينى ولما سأله مراسلنا إن كان يريد أن يتكلم عن أرسين لوبين ، عدوه اللدود السابق ، واكتفى بأن رفع أصبعا إلى فمه وقال :

- من يدرى :

وكان اهتمام الناس كبيرا حقا . وقال الماكرون منهم : أن الجرائد تعمل على أن ننسى تسليح ألمانيا . وقال بعض الملمين بالأمور أكثر من غيرهم "مسكين جانيمار . ما أن يقع على معضلة صعبة حتى يتهم لوبين" . ولكن الفضوليين العاديين اهتزوا طربا وهم يقولون : سوف نضحك قليلا .. وقد كانوا فى حاجة إلى ذلك حقاً . وانتقلت من فم إلى فم خلال البلد همسة كبيرة تقول :

- أرسين لوبين لم يمت .. أرسين لوبين يعود .

دعك راوول دابنياك الجريدة بين يديه وألقاها أسفل فراشه .. المفتش العام جانيمار يتتبع أثرا هاما.. ماذا ؟ أيكون قد اكتشف أمر البارون هكذا حالا ؟ محال . لقد اقتضى الأمر منى أنا لوبين ، ربع ساعة .. وكنت أملك عناصر لايملكها هو .. لابد له من ستة شهور على الأقل .. هذا إذا خدمه الحظ . كلا ، كلا . إنه ويحاول أن يجتذب الأنظار إليه .. وهذه حيلة لاتنطلى على .

ولكنه كان مكتئب المزاج عندما دق الجرس يستدعى خادمه وكان مكتئب المزاج وهو يأكل . وعندما أشعل أحد سجائره الهولندية المصنوعة خصيصاً من أجله لم يكن قد استعاد مرحه وحيويته المعروفين عنه .. لم يكن يريد أن يدس البوليس أنفه فى مشكلة يونرفيل ، فقد كان كفيلا بأن يفك رموزها وحده .. أما البارون فلا شأن له بهذه المشكلة هو الآخر ، فإن الصيد صيده هو ولا يجب أن يتدخل فيه أحد غيره، ولهذا عزم على أن يكتب لجريدة ايكو دى فرانس ، فإن الكلمة التى ذكرها جانيمار جرحت كبرياءه .. رجل نسيناه بعض الشئ .. آه ، كيف يتكلم بهذه اللهجة .. حسنا سوف يرى .. رجل نسينا بعض الشئ .. ما هذه الوقاحة .. لقد حدث نفسه أكثر من مرة فقال "سأكون فى القصر بجوارها ، بعد ثلاثة أيام ، ولا

يمكن أن يكون الأمر غير ذلك" .

ولكن اليوم كان رديئاً ، من تلك الأيام المكفهرة التى يسوء فيها كل شئ حيث ماء الدش ساخن أكثر من اللازم ، وحيث تضيع أزرار القميص وحيث تعكس لك المرآة وجها تعلوه تعضات المشيب .

لبس راوول قبعة خفيفة وأخذ العصا التى يأخذها معه عندما يخرج للنزهة وخرج . سوف يجد حريته فى الخارج أكثر لكى يكتب ردا لاذعا للسيد جانيمار .. ويمم نحو الغاب .. والواقع أن ذلك الغبى العجوز كان على حق ، فمنذ شهور والشعب محروم من تلك المقالات المرحة الطريفة التى طالما خدمت أسطورة أرسين لوبين .. وحدث راوول نفسه فقال "إننى كنت أعلن عن مغامراتى مسبقا فى الماضى وأعلق عليها .. صفوة القول ، كنت الهو ما أشاء .. ولعمرى لقد كنت شابا .. ولكن الزمان كان يتلاءم مع ذلك .. كان الناس أكثر مرحا يجب أن أهتدى إلى الوسيلة لتجديد إحدى هذه المغامرات التى تثير إعجاب الناس ودهشتهم .

كان غارقا فى تأملاته هذه بحيث لم يبد أى اهتمام للرجلين اللذين يسيران خلفه واللذين راحا يقتربان منه شيئاً فشيئاً .. وفجأة أحاطاه من جانبيه . وتوقف راوول وهو يقول : آه .. ما هذا ؟

وظهر أمامه رجل ثالث ، وانضم إليهم رجل رابع ضغط على ظهر راوول بماسورة مسدسه قائلاً :

ـ لاتقاوم ياراوول دابنياك .. إننى ألقى القبض عليك باسم القانون .

تم كل هذا بسرعة مذهلة تتفق تماما مع مشاغل راوول بحيث إنه انفجر بالضحك وقد استعاد مرحه وقال :

ـ حسناً ياجانيمار .. ولكن لماذا هذه التكشيرة البغيضة .. نعم ..

أنا راوول دابنياك .. أنا هو .. أعنى ذلك الشخص الذى أوشكت أن تنساه .. ولكن اضحك وابتهج أيها الصديق العزيز .. أنك كسبت المعركة ، ولك أن تمرح وأن يأخذك الطرب ولو مرة فى حياتك .

وهزه المرح واستطرد يقول مثيراً دهشة رجال البوليس الذين أحاطوا به .

ـ آه .. لن أنسى لك هذا أيها العزيز جانيمار.. تأتى هكذا خلف ظهرى وتستنجد بثلاثة رجال لأنك لست مطمئناً إلى نفسك .. وتستخدم الوسائل الكبيرة والصوت الخطير : راوول دابنياك .. إننى ألقى القبض عليك .. وعندئذ يلتفت السيد دابنياك ويستولى عليه الخوف .. وأخيرا ها هو دابنياك .. إنه هو نفسه لوبين .. امسكوه انتم الآخرون .. أسرعوا وأسندوه .. ألاترون أنه سيغمى عليه .. إنه لم يعد شابا كما تعرف وقد تسببت له فى الكثير من المشاكل والانفعالات.. ماذا ؟ الاصغاء ؟ لى أنا ؟ ولكننى لا أطلب إلا أن أتبعك .. كنت أقول لنفسى بالذات يجب أن أثبت مقدرة هذا المسكين جانيمار ، فسوف يعينه ذلك على الترقية .. هل تسمح لى أن أجفف عينى ؟ ليس الذنب ذنبى إذا كنت أبكى لفرط الضحك .. آه .. هناك سيارة أجرة تتبعنا .. إنها تتبعنا ، أليس كذلك . إن هذا الذكى جانيمار يفكر فى كل شئ .. لكم أن تستمتعوا أيها السادة .. حسناً ، تفضلوا .. بعدكم .. كلا هذا صحيح فأنا ضيفكم .. أيها السائق ، إلى إدارة البوليس .

زمجر جانيمار :

ـ أيها الوغد .. سوف تتخلى عن عجرفتك هذه بعد قليل .. سوف أعلمك أنا كيف تقتل أمناء بالمكتبات .

ـ لأنك تتصور أننى .. آه .. هذا غريب جدا .. ولديك دليل طبعاً ..

أعنى دليلاً أكيدا قاطعا ، لايقبل الجدل .

- ليس لدى دليل واحد .. وإنما دليلان .

عرف راوول هذين الدليلين فى اليوم التالى عندما مثل أمام قاضى التحقيق فورميرى .. كان قد استجم تماما، وعاد يشعر كأنه صغر عشر سنوات .. ولهذا خضع للاستجواب عن طيب خاطر .. ولكنه وضح موقفه على الفور بأن قال :

- لن نتكلم عن أرسين لوبين فالمعروف أن بصماته اختفت من أرشيف البوليس القضائى منذ وقت طويل ، ولهذا لايحق لأحد أن يزعم أننى لوبين خاصة وأن المقارنة تطربنى كل الاطراء .

- ولكن المفتش العام جانيمار ..

- إذا أردت الحقيقة ياسيدى القاضى فإنه يخرف .. إن لوبين مات والجميع يعرفون ذلك .

- ليكن .. آه .. أريد أن أقول .. لنفرض أنك لست لوبين فإن هذا لا يمنع أنك قتلت ذلك الرجل التعس .. أمين المكتبة .. فمعى ، أولاً ، خطاب توصية ممهور بتوقيع جابرييل تابارو ويوصى فيه براوول دابنياك لسكرتير شركة نورمانديا للتاريخ والآثار ، ولست بحاجة إلى أن أقول لك أن جابرييل تابارو عضو المجمع والضابط بفرقة الشرف لم يكتب هذا الخطاب إطلاقاً .

- ولكن ..

- انتظر .. وهناك أيضاً سلاح الجريمة.. عثر البوليس على مسدس القاتل بجوار الجثة وتنقصه رصاصة ، وهى نفس الرصاصة التى استخرجت من جثة جاستون سيرول.. وتقرير الخبراء فى هذه الناحية أكيد ثم إن مقبض المسدس عليه بصمات واضحة .. وهى بصماتك

أنت يامسيو دابنياك .

ـ كيف ؟

أقول لك أن بصماتك التى أخذناها أمس هى نفس البصمات التى رفعناها عن المسدس .. وهذا يعنى أنك أنت القاتل دون أى نزاع .

ـ ترانى شديد الجزع لذلك .

ـ عفواً ؟

ـ من ناحية ، أنت متأكد إننى لست راوول دابنياك .

ـ طبعاً .

ـ ومن ناحية أخرى لا تتردد فى إتهامى بارتكاب جريمة قتل ؟

ـ طبعا .

ـ إذن فأنا لا أدرى أين أنا بالذات ، لأننى أقسم لك أننى لم أقتل أحداً ، فبصفتى لوبين فإن يدى ملوثتين بالدماء ، ولهذا فإننى أتساءل إذا لم أكن لوبين .

صاح القاضى :

ـ لا أسمح لك بالمزاح .

قال راوول متساهلاً :

مهلا .. إننى معك فى هذين الدليلين المثيرين للقلق ، ولكن شيئاً من اثنين ، إما أن أكون لوبين أو لا أكون لوبين .. هل أنت معى فإذا كنت لوبين فأنت تعلم طبعاً أنك لا تستطيع احتجازى فى السجن .. اتفقنا ؟ غدا سأكون هربت اذن .. ولكن إذا هربت فسوف يكون ذلك دليلاً على أننى لوبين بالطبع .. ولما كان لوبين لا يقتل فسوف أثبت براءتى .. وهذا الاستدلال يبدو معقدا بعض الشئ طبعا ، وأرى ياسيدى

القاضى أنك تشعر كأنك تائه .

صاح فورميرى :

ـ كفى .

ـ حسنا .. حسنا .. لا داعى للغضب .

ـ آه ، ليس لدى الآن أى شك .. أنت لوبين طبعا .

ـ فى هذه الحالة يؤسفنى أن أودعك بعد قليل .

ـ هذا ما سوف نراه .

ـ إذا بقيت في السجن فلن أكون إلا راوول دابنياك عندئذ .

كان القاضى يكاد يستشيط غضبا فى حين كان راوول يبتسم وكان الكاتب يصغى فاغرا فمه .. وصقل راوول ثنية بنطلونه وعقد يديه على ركبتيه وقال :

ـ سيدى القاضى ، أرجوك أن تصغى إلى .. مهما يكن فأنا هنا لمساعدة العدالة ، وفى هذه اللحظة ، مع هذا الإيقاف المضحك فإنك تحول بينى وبين اللحاق بالقاتل الحقيقى ومن تسليمه لك .. ليس لدى الوقت للبقاء فى السجن ، أفلا تريد إطلاق سراحى حقا ؟

قال مسيو فورميرى وهو يكاد يختنق :

ـ أعيدوه إلى السجن .

ـ دقيقة واحدة .. أنت تعلم تماما أننى اتخذت احتياطاتى ياسيدى القاضى ، ولهذا يجب أن أخطرك .. إننى أعددت فرارى مسبقاً ، وعليك أن تفكر فى الأمر اذن .

وكان الحراس قد أمسكوه من كتفيه فتخلص منهم بهزة واحدة وقال :

ـ إنني اختار الأستاذ هنرى بورناد محاميا لى .

بعد ساعة من ذلك ، وفي زنزانته بسجن السانتيه ، كان لديه كل الوقت للتفكير .. وكان لابد له من أن يعترف مرة أخرى بأن الموقف لم يكن جميلاً ، فإن العدو أدار اللعبة بكل حذق وعرف كيف يستغل أقل الهفوات .. وكانت الهفوة الأولى إمساكه بالمسدس فى بيت البارون ، فقد كان الخادم يلبس قفازا ، وكان المقبض قد مسح تماما وأزيل ما كان عليه من بصمات ، فهل كان الأمر مدبرا ؟

أم أنهم استغلوا الموقف فحسب ؟ صفوة القول ، سرقوا بصماته بطريقة ما .. كان العدو بعيد النظر ، ويتصرف بدهاء كبير .. أما الهفوة الثانية فهى احتفاظه بالخطاب الممهور بتوقيع تابارو بدلا من اتلافه ، ولم يكن أمام البارون إلا أن يلتقطه فى الليلة التى استولى فيها على المذكرات وفتش جيوب راوول ، وقد عاد بعد ذلك إلى مكان الجريمة ، ولم تكن قد اكتشفت بعد، ووضع هناك الخطاب والمسدس ، وبذلك تم توقيع لوبين على الجريمة ، ولم يكن على البوليس إلا أن يقوم بالباقى ، وهكذا غلب لوبين بأسلحته هو بالذات وأبعد عن ساحة المعركة وأصبح مضطرا إلى اللجوء للحلول اليائسة .. وكان يتعين أن يتقدم بعد يومين إلى قصر يونرفيل متقمصا شخصية ليونس كتارا .. وإذا تهرب الأستاذ بورناد فسوف يضيع كل شئ .

ولكن لوبين لم يكن يمقت الإحساس بالهزيمة ، فأخرج من بطانة جاكتته ورقة وقلما صغيرا أفلتا من التفتيش وبدأ يكتب خطابا لجريدة ايكو دى فرانس :

مرة أخرى أتقلب ضجرا وسأما فوق فراش من القش الرطب بالسجن أستمد من براعتى القوة لكى أعلن سخطى للملأ ، فهم يتهموننى، أنا ، أرسين لوبين بأنى قتلت ذلك المسكين جاستون سيرول

وكأنني وقد طواني الموت منذ سنوات لم أعد شبحا لايستطيع إيذاء أحد .. ولكن المفتش العام جانيمار ، في عجزه عن القبض على الجناة الحقيقيين لا يتورع عن اعتقال الأشباح ، ولهذا السبب ، وعلى الرغم من نفوري من استغلال امتيازاتي كشبح أراني مضطرا لاختراق الجدران والعودة من العالم الآخر للانقضاض على القاتل وارغامه على الاعتراف بارتكابه جريمته .. ولن أتأخر عن إطلاع الجمهور بنجاح خطتي .

عفريت أرسين لوبين

وعندما حان موعد تناول العشاء دس راوول الخطاب في يد أول حارس التقى به ومعه ورقة مالية كبيرة ، وأسرع الحارس فأخفى الخطاب والورقة في جيبه ، وكان راوول قد استخدم هذه الطريقة في ظروف أخرى مماثلة ولكنه في هذه المرة اعتمد على ارتشاء الرجل وربح ، وكان أن ضج العالم في صباح اليوم التالي بالضحك .

كان الناس يتخاطفون الجريدة في الشارع، وراح الجميع يتخاطبون دون أن تكون بينهم سابق معرفة ويهنئون بعضهم البعض .. إنه هو حقاً .. كانوا يشتبهون بالأمس في أنه على قيد الحياة .. سوف يغير هذا الكثير من الأمور .. وتألقت العيون في إنفعال يعبر بسذاجة عن فرحة الناس ، فقد عاد المغامر ذو الابتسامة الساخرة ، وأصبحت الحياة اليومية بما فيها من صخب وشقاء أكثر احتمالا، فقد كان هناك رجل بعيد المنال وفائق المقدرة يضع مواهبه الفذة العديدة وذكاءه الخارق ومقدرته العجيبة في خدمة العدالة .. وعلى الفور بدأت المراهنات ، في المصانع ، وفي الترام وفي الحانات وحتى في الأوساط البورجوازية .. سوف يهرب.. لن يهرب .. ولم يجدوا الوقت للجدال والنقاش لأن بياناً وجيزاً عرفوا منه في نفس المساء أن

السيد راوول دابنياك ، المشتبه فى أنه أرسين لوبين قد اختفى من السجن بطريقة غامضة ولم تزد مدة سجنه عن ثمان وأربعين ساعة .. ووجدوا مكانه محاميه الأستاذ هنرى بورناد ، فاقد الرشد وعاجزا عن تفسير ما حدث له .

وساد الجنون والانفعال ، ونسى الناس كل شئ . نسوا التوتر الدولى ومغامرات أوائل الطيارين وفضيحة كايو.. آه .. كانوا يعرفون وسائل لوبين عندما يتحدى ، ومرحه الساخر وحيله العديدة وخياله الواسع الخصب . ولكن كيف تمكن من ذلك ، وما هى التواطؤات التى ضمها إلى صفه فى مثل هذه المدة الوجيزة ، وبأية معجزة استطاع أن يتغلب على الرقابة الفعالة التى يخضع لها .. وقد شرح لوبين لى بعد ذلك بمدة طويلة، وبعد موت الأستاذ بورناد وطريقة فراره العجيب ومازلت اسمعه وهو يقول :

"كان يتعذر على أن اكشف الحقيقة عندئذ .. ومهما يكن فأنا كالحواة لا أحب أن أكشف عن الاعيبى ، وكان ذلك الدور من الحماقة والبساطة بحيث يحمر وجهى خجلا وأنا أتحدث عنه" .

وخيل لى أن وجهه يضطرم بالانفعال وهو يقول ذلك ، مبتسما ابتسامته الساخرة المعروفة عنه . وانحنى نحوى بطريقة صبيانية وربت بيده على ركبتى فى رفق وهو يقول :

- لاتقل لى أنك لن تفهم .. كنت قد أعددت العدة لهذا الفرار منذ وقت طويل ، بدافع الحرص لاغير .. وقد حذرت ذلك القاضى المتزمت .. كنت قد أعددت فرارى مسبقا ، تماما كما يعد المرء مبلغا من المال ويخبئه مسبقا لكى يواجه به كل الاحتمالات . وأنا مضطر أن أتوقع كل شئ ، حتى حماقات البوليس ، ولهذا فإن الأستاذ بورناد كان يعرف ما يتعين عليه أن يفعل بمجرد أن أطلب مساعدته .

واضطجع لوبين فى مقعده إلى الوراء يضحك تلك الضحكة الساخرة الرنانة بحيث طاب لى الاستماع إليها، واستطرد يقول وصوته يتهدج مرحا :

- ما كان المسكين بورناد ليرفض طلبا .. ولكن هذه قصة أخرى لقد أطلق بناء على تعليماتى شاربا كثا ولحية طويلة ملساء ، وهى من الأدوات التى تصلح للتنكر .. ولعل ذلك كان مزعجا ومضايقا له ولكنه كان ضرورياً لى وقد دخل زنزانتى فى ذلك الصباح مرتديا معطفا واقيا من المطر، لأن الدنيا كانت تمطر ، ويرخى قبعته فوق عينيه .. وبعد نصف ساعة رأى الحراس رجلا ينصرف له شارب ولحية ويرخى قبعته فوق عينيه ويرتدى معطفا واقياً من المطر ، ولم يخالجهم الشك لحظة واحدة فى أن ذلك الرجل هو خادمك الذى يحدثك الآن ، فقد جاءه بورناد ببعض الشعور المستعارة وهكذا نجحت الخطة .

- وهو ؟

- حسنا ، قبل أن أنصرف لكمته فى رفق تحت ذقنه ، وكان هذا أمرا متفقا عليه من قبل ، فما كان يجب لأحد أن يحسبه شريكا لى ، ولهذا السبب لازال جانيمار يتساءل حتى اليوم كيف استطعت أن أتنكر .

وانصرف لوبين بعد ذلك ، وكان لابد لى من الانتظار سنوات طويلة قبل أن أراه ثانية .

•••

فى اليوم التالى لفرار لوبين تقدم رجل هزيل البنية ضيق الكتفين يرتدى جاكتة براقة فضفاضة ويضع على عينيه عوينات نحو الباب الحديدى لقصر يونرفيل .. وكان أشيل هو الذى فتح له وخاطبه الرجل فى شئ من الخجل :

ـ أنا ليونس كتارا .

قال أشيل فى شئ من التوتر :

ـ أتيت من المحطة سيرا على الأقدام ؟ كان فى مقدورى أن آتى لاصطحابك .. اتبعنى أيها السيد .. إنهم فى انتظارك فى غرفة المكتبة .. أعطنى حقيبتك .

ورافق السكرتير حتى القصر وتركه مع مسيو فيرانج .. وتأمل هذا الأخير الوافد الجديد فى شئ من التسامح المتعجرف ثم قال :

ـ هل تعرف ما أنتظره منك يامسيو كتارا ؟ لاريب أن ابنة أخى قد ذكرت لك .. هل أنت على دراية بمثل هذا العمل ؟

ـ أظن ذلك .. نعم آه ، أخيرا ، إنه ليس بالعمل الصعب .

ـ أريد فهرسا أبجديا بأسماء المؤلفين وآخر بعناوين الكتب .

ـ طبعا .. لعل ذلك .. معذرة .. سوف يقتضى هذا العمل مدة طويلة .

ـ لا أهمية لهذا .. أنت هنا فى بيتك يامسيو كتارا .. وقتى لايسمح بأن أريك القصر لأنه لابد لى من أن أمضى إلى المصنع ، ولكن ابنة أخى سيسرها أن ترافقك .. لوسيل ، هل لك أن تأتى لحظة ؟

ظهرت الفتاة قادمة من الصالون ، وما أن رأت السكرتير حتى بانت عليها أمارات خيبة الأمل .. وبسطت له يدا رخوة فى حين قام العم بالتقديمات .

ـ حسناً .. سأنصرف الآن يامسيو كتارا ، وستمضى بك لوسيل إلى غرفتك .

وودعه مسيو فيرانج بتحية جافة .. وقالت لوسيل :

ـ تفضل ، من هنا .

وتقدمته نحو الدرج ، وأوشك أن يقول : لقد سبق لى أن أتيت .

وأحس بارتياح كبير وهو يصعد الدرج خلفها.. قبل ذلك ببضعة أيام كان موجودا فى القصر يتغلب على خوفه أثناء صليل جرس الانذار.. أما اليوم دخل القصر الكبير مدعوا.. كان يعبد هذه المتناقضات والمواقف المقلوبة ، فقد كانت بهاء حياته الحافلة بالمغامرات ، ولما كان يحب المداعبة بطبعه فقد استمتع مسبقا بالدهشة التى ستشعر بها لوسيل عندما يعترف لها أنه ليس كتارا وإنما ريشار ديمون الصحفى ، وسار خلفها وهو يتظاهر بأنه يلقى حوله بنظرات حافلة بالاحترام والإعجاب .

- هذه هى غرفتك يامسيو كتارا .. إنها تطل على الحديقة .

- شكرا .. إنها غرفة جميلة ، وإننى أسمع العصافير .. إننى أحب العصافير .

كان يحاول أن يبدو رجلا عاديا لاشأن له ، مضحكا بعض الشئ .. وراق له كثيرا أن يشعر بأنه يتسبب فى قلق الفتاة لأنه لم يكن ذلك الذى كانت تنتظره وإنها كانت تظن أن ذلك الصحفى الغامض الذى يشغل ذهنها لن يأتى بعد .

- هل تريد أن تطوف بالقصر الآن ، أم تؤثر أن تستريح قليلا .

- بل أريد أن أتحدث معك .

وكانت لوسيل قد مشت نحو الباب ، فتوقفت وتحولت نحو الرجل الهزيل الذى تغير صوته فجأة ، وبدت الجاكيت الفضفاضة أنيقة عليه .. خلع عويناته وومضت عيناه خبثا وانحنى أمام الفتاة وهو يكنس الأرض بقبعة خيالية ويقول :

- ريشار ديمون فى خدمتك .

ذهلت الفتاة ولم تدر ماذا تقول أو ماذا تفعل.. هل يجب أن تضحك أو أن تغضب .. وعقدت يديها على صدرها وراحت تتأمل فى فزع ذلك الوافد الجديد الذى ظهر هكذا فجأة ردا على ندائها الصامت كما يظهر الأمير فى إحدى قصص الحوريات . وقال الصحفى :

- آه ، حسنا .. ألم أعدك بأننى سأعود .

بدا لى أنه أدعى إلى الحرص أن أتقمص شخصية عادية ، فإن أعداءنا يسهرون ، وثقى بما أقول .. ولكن من ذا الذى يمكن أن يشتبه فى كتارا ؟

- هل تتنكر كثيرا يامسيو ديمون .

- كثيرا جدا ، لدواعى مهنتى ، واجرؤ فأقول إننى أفلح فى هذه المهنة .. وسوف ترين .

وفى لمح البصر بدا أنه ينكمش وخبت نظرته تحت عويناته وتهدلت الجاكيت عند كتفيه كما لو كانت قد بليت وصم صوته وعاد إلى تأتأته وتردده وهو يقول :

- هل أبدو .. إذا أردت أن تسمحى وتقبلى الوصف ، هل أبدو كأننى شخص أخرق .

صفقت لوسيل بيديها وصاحت كطفلة فى المسرح :

- مرة أخرى !

قال ريشار ديمون : كلا .. أنسيت أننى هنا لعمل خاص .. كفى هزلا .

- ولكن أين وضعت ليونس كتارا الحقيقى .

- صه .. فى النفتالين .. اعلمى يالوسيل أنه لايجب استجوابى أبدا .. ولك أن تطمئنى من ناحيته .

ـ وهل تعرف كيف تؤدى عمله ؟

ـ ولكنه من أبسط الأعمال .. وقد سبق لى أن أديت أعمالا أكثر صعوبة .. كان يبتسم .. كان سعيدا بصورة غير معقولة .. صوت صغير كان يعرفه جيدا كان ينفخ فى أذنه ويقول :

ـ يا لك من ممثل ! ألا تخجل من القيام بدور مايفو مع هذه الطفلة التى تبدى نحوك كل هذا الاعجاب ؟ ما الذى يمنعك من أن تمشى على يديك فى نفس الوقت وأن تسير بقدميك على الجدران ؟ .. وكان يرد على نفسه فيقول :

ـ لن تتجاوز الأمور أكثر من هذا ، وإنى أقسم على ذلك .. ولكن يجب أن تفهم أن الفتاة المسكينة كانت مريضة .. تعانى من الوحدة وإننى فى هذه اللحظة أرد لها صحتها وأعيد إليها الابتسامة وحب الحياة .. ثم إنك تضايقنى .

قالت لوسيل : سأريك القصر الآن .

ـ لاتزعجى نفسك بمرافقتى.. وأرجو المعذرة .. إننى أوثر أن أكون بمفردى وأنا أطوف بالقصر.. وبهذه المناسبة ماذا من أمر برناردان ؟

أجابت لوسيل :إنه لم يعد بعد ، وقد بدأ القلق يساورنا من أجله .. إذا طال غيابه فسوف يبلغ عمى البوليس ، فلعل شيئاً قد وقع له .. إننى أعلم تماماً أنه اعتاد أن يمضى ويأتى كما يريد .. لقد كان يعتز دائماً بحريته .

ـ وهذا هو السبب بالذات.. وسوف يتملكه الغضب جدا إذا نحن أطلقنا الشرطة خلفه.. صدقينى .. من الأوفق الانتظار قليلا استعملى نفوذك مع مسيو فيرانج ، وسأرى من ناحيتى إن كنت أستطيع أن أفعل شيئاً.. آه .. كلمة أخرى.. عامليني دائماً بتحفظ أمام الآخرين ، وهذا أمر يسير طبعا فأنا لا أعتبر شيئاً بالنسبة لك .. لست هنا إلا

مجرد شبح .. وخيال .. لنفترق الآن .

ومضى إلى غرفة المكتبة وراح يتأمل فى حزن وأسى جدرانها التى تغطيها الكتب .. كان أمامه أربعة عشر أو خمسة عشر ألف كتاب على الأقل ، وعليه أن يقضى الأسابيع الطويلة فى تدوين بطاقات لها .. ولكنه لن يفعل ذلك طبعا فإن أمامه عملا أفضل ولكن ماذا ؟ .. لم يكن يدرى عم يجب أن يبحث فلكى يصل إلى نتيجة فعالة لابد أن يكون برناردان تحت يده هو والمذكرات .. أما البارون فسوف يظهر إن عاجلا وإن آجلا ، وعندئذ مضى راوول إلى المعرض ودهش على الفور لسعته وتناسقه .. كان عبارة عن قاعة كبيرة ينيرها عدد من النوافذ المرتفعة تطل كلها على فناء القصر ، وثمة أمور غريبة .. كان هناك فى آخر القاعة جزء مسطح مرتفع أشبه بخشبة المسرح ولعله كان مخصصا فيما سبق للموسيقيين ، عندما كان صاحب القصر يقيم الحفلات الراقصة .

وكانت مجموعة اللوحات رائعة يقف المتأمل أمامها طويلا .. وكان راوول قد سبق له أن رأى أجمل اللوحات على ضوء مصباحه الكهربى ولكنه كان يقف الآن أمام مجموعة نفيسة لاتقارن بغيرها من اللوحات وتستحق عن جدارة تركيب جرس الإنذار ووجود المسدس .. وتملكه العجب وتقدم فى بطء وهو يحاول أن يكتم وقع خطواته فوق بلاط القاعة المرمرى ذى اللونين الأبيض والأسود المتعاقبين والذى بدا كرقعة الشطرنج .. كانت لوحات كثيرة ، لرهبان وقساوسة متشابكى الأيدى وبعض رجال البلاط وهم يمتشقون سيوفهم وبجوارهم قضاة يبدو التردد فى عيونهم بين غيرهم من أصحاب الوجوه المتأملة والصارمة .. كان يبدو أنهم يضيفون إلى صمت المكان سمة عامة من الاستياء .. وكانت هناك لحسن الحظ سجادة كبيرة يدل مظهرها على أنها تلقى عناية وصيانة كبيرتين ، كانت تقطع رتابة تلك الوجوه

الصـارمة ، نسـجت بتلك البـسمـات المزرقة التى تميزت بها المدرسة الفرنسية وتمثل بلاط الملك فرانسوا الأول ، وفى بدايتها رقعة شطرنج والملك واقف يبسط يده لكى يمسك بيدقا فى حين كان خصمه غارقا فى التفكير .. وكان الرسم فى منتهى الرقة ، وعند قدمى الملك تكوم تريبوليه وراح يداعب كلبا سلوقيا فى حين بدا النبلاء يتمشون حولهم وهم يبسطون إيديهم لسيدات يرتدين ثيابا براقة .

وكانت ثنية الثياب تبدو ثقيلة بعض الشئ وتدل على أذواق فجة ويكاد أسلوب النهضة ينفلت بالكاد من أسلوب القرون الوسطى .. ولكن كان هذا المزيج المتوتر والطبيعى فى نفس الوقت ينم عن شاعرية نادرة .

تراجع راوول قليلا لكى يتأمل بطريقة أفضل ذلك المزيج العجيب ثم انتقل إعجابه إلى إنسجام الألوان وتوافقها العجيب .. كانت قطعة فنية رائعة لو أنه رآها فى وقت آخر لظلت تلح عليه ليال طويلة .. وأفلتت من صدره زفرة وابتعد قليلا لكى يقف أمام لوحة للقديس جان بابتست .. جهد كبير بدون فائدة .. وبجوارها فارس جالس فى حانة يعب الشراب فى صخب مع زميلين .. كانت اللوحة مملوءة حركة ولكن راوول لم يكن يحب اللوحات ذات الأبعاد الطويلة والأعمال الطموحة أكثر مما يجب.. كان يفضل اللوحات الصغيرة كلوحة يعقوب الذى ينازل الملاك .

- رباه ! .. القديس جان .. ويعقوب .. ودارتنيان !

عادت كلمات الأب برناردان إلى ذهنه فجأة .. هل هذا ممكن ؟ القديس جان بعد يعقوب .. ولحظ راوول عندئذ أن المكان حول اللوحة التى تمثل القديس جان أفتح من غيره فارتد إلى الخلف .. لم يكن هناك أى شك .. كانت فى ذلك المكان لوحة أخرى تغطى مساحة أكبر

.. وأطبق عينيه.. كم من مرة تجلت له الحقيقة فجأة وفى وضوح تام ! وأحس بأن الحقيقة تتكشف أمامه فى هذه اللحظة بالذات ، وإنما ستنقض عليه كما ينقض الوحى على الفنان ، وكل ما عليه هو أن يبقى مكانه وألا يتحرك وأن يترك لذهنه العنان لكى يهتدى إلى السر الغامض الذى يحاول أن يتبدى له .

القديس جان يخلف يعقوب .. القديس جان يخلف يعقوب .. حسنا ، وبعد آه ، أظن أننى فهمت .

وأنزل اللوحتين من مكانهما وعلق لوحة يعقوب مكان لوحة القديس جان .. وغطت اللوحة الأخيرة الجزء الفاتح من الحائط تماما وهكذا كانت لوحة يعقوب هى التى كانت تشغل هذا المكان فيما سبق ، وقد خلفتها لوحة القديس جان .

وان ؟ والفارس ؟ دارتنيان.. ما دوره فى كل هذا ؟ انطفأ الوميض السريع الذى تألق فجأة وسط الظلمات وتوترت كل أعصابه وراح يفكر .. كان هذا غباء كبيرا .. أن يلمس بأصبعه شيئاً على جانب كبير من الأهمية ثم يعود فيتخبط من جديد .

وفجأة عرف بغريزته أنه ليس وحده فرفع عينيه فى غير مبالاة إلى فترينة تضم مجموعة من النياشين ولكنه لم يحفل بالميداليات والمجوهرات والنياشين .. وعكست مرآة الفترينة قاعة المعرض .. واكتشف خلفه ، بجوار المدخل طفلة صغيرة عرفها على الفور .. فاليرى .. حفيدة برناردان .. وإذا كانت الطفلة قد داخلها الخوف من ريشار ديمون فإنها لم تشعر بأى خوف من ليونس كتارا ، لأن هذا الأخير يمت إلى عالمها ولأنه كان خجولا مثلها، ولعله بحاجة إليها. لأنه خيل لها أنه تائه قليلا فى هذا المعرض الكبير.. وتحول راوول فى بطء وقال :

ـ فاليرى .

واتخذ صوته أشد اللهجات إقناعا ، وجاءت إليه باسطة يدها .

ـ صباح الخير يافاليرى .. أترين ؟ إننى أتفرج فى نفس الوقت .. ليست لدى كراسة جميلة مثلك ، ولكننى أسجل أشياء فى رأسى .. هل لك أن ترينى إياها ؟

كانت تحمل تحت ذراعها الأيسر كراسة من مائة صفحة ، زرقاء ، وقد كتبت على غلافها اسمها بعناية كبيرة "فاليرى فوتيرى" وكانت تضم مواضيع إنشاء ومسائل حساب وملخصات ..

ـ أراهن أنك تلميذة مجتهدة .

أجابت الطفلة فى سذاجة : نعم .

ـ وأنك تذاكرين دروسك جيدا .. وأن لك ذاكرة قوية .

ـ أوه ، نعم .

ـ أنتحقق من ذلك إذن.. انظرى حولك.. هل انتقل شئ من مكانه ؟

ركزت الطفلة ، وبدأ عليها الجد والاهتمام فجأة فى إرادتها لكى تعطى لهذا السيد الظريف انطباعا حسنا عنها .. وأجابت :

ـ كلا .. كل شئ كما هو .

ـ هل يأتى جدك إلى هذه القاعة كثيرا ؟

ـ نعم .

ـ وهل يقترب من الفترينات .. واللوحات .

ـ نعم .. فهو الذى يعنى بها وينظفها .

ـ ثم ؟ ماذا يفعل غير ذلك ؟

ترددت لحظة وقد احمر لونها وخفتت من صوتها وهى تقول :

ـ إنه يمشى فوق السطح فى بعض الأحيان .

ـ ايه يمشى فوق السطح .. هل أنت واثقة ؟

ـ نعم .. وهو يمشى على أربع .

ونظرت إلى راوول خفية وهى تخشى أن تكون قد كشفت عن شئ يمكن أن يعطيه فكرة سيئة عن جدها ، ولكنها لم تلبث أن ابتسمت عندما رأت أن السيد قابل اعترافها هذا باهتمام كبير .

ـ ومتى يمشى فوق السطح ؟

ـ فى الليل.. صحوت مرة ورأيته، وقد ساءه ذلك وأوشك أن يضربنى .

ـ فاليرى ..

كان الصوت صوت لوسيل ، ووقفت الطفلة على الفور بعتبة المعرض .

ـ آه .. أأنت هنا يافاليرى .. ألايمكنك أن تردى على عندما أناديك .. معذرة يامسيو كتارا .. إنها فضولية كالقطة .. إننى أبحث عنها لكى أجبرها على العمل قليلا .

وكانت قد اقتربت واردفت تقول فى صوت خافت :

ـ جدها هو الذى يهتم بها عادة ولكن يجب أن أحل محله طبعا .

وضع أمين الكتبة المزعوم يده على رأس فاليرى وقال :

ـ هل أنت راضية عنها ؟

ـ نعم .. إنها طفلة رزينة جداً .

ـ فلنمنحها اليوم عطلة إذا سمحت .

وربت على خد الطفلة وقال :

ـ امضي والعبي يافاليرى ، ولندع الأعمال الجادة إلى الغد .

ـ شكرا ياسيدى .

وانطلقت وهي تعدو .

وقال راوول وهو يستعيد صوت ريشا ديمون: لعلك تتساءلين لماذا ؟ ذلك لأنني بحاجة إلى أن أوحي بالثقة لهذه الطفلة ، فهي تعرف أشياء

ـ أية أشياء .

لا أدرى .. ولكنني سأسألها شيئاً فشيئاً.. لاتنسى أنها كانت تتبع جدها فى كل مكان وأنها كانت تسمعه يتكلم .. هل يحزنها غيابه ؟

ـ لا أظن ، فهى كتومة جدا وقد رباها برناردان فى خشونة .. وقد قلنا لها إنه سافر لقضاء عمل ، ولعمرى سرها ذلك .

قال ديمون : هل تريدين أن تريني البستان ؟ إن لدينا الوقت .. ويجب أن يبقى خادمك ، ذلك الغر الساذج الذى أقبل من باريس والذى يطوفون به أرجاء البيت .

ومشى خلف لوسيل بخطوتين فى احترام واستحياء وهو منحنى الظهر قليلا ، وفى وضع ذليل حقا .. وطاف بالدور الأرضى للقصر ومر أمام المطبخ حيث تعمل أبولين وخرج إلى البستان ، وعرف وهو فى طريقه الباب الصغير الذى خرج منه البارون وشركاؤه فى الليلة التى اختطفوا فيها برناردان .. وإذ أصبح بعيدا عن المقيمين بالقصر اعتدل فى وقفته وسار بجوار لوسيل ، وقال :

ـ لهذه النزهة غرض آخر ، هناك مايحملنى على الظن بأنكم جميعاً مراقبون .. لاتسأليني من .. فمازال الوقت مبكر لكى أرد عليك .. ولهذا يجب أن أعرف عن ظهر قلب تفاصيل القصر والبستان وكل مايحيط بهما، لأنني واثق أن المعركة الحاسمة ستدور هنا .. كلا ..

لاتخافى .. لن يقع لك شئ .. اسمعى ، هذا باب آخر .. فأين يؤدى ؟

- لايؤدى إلى أى مكان إنما هناك درب من الناحية الأخرى يتصل بالحقول .. كان هذا الباب فيما سبق يؤدى إلى مقبرة صغيرة ملحقة بالقصر وبعد الثورة أصبحت هذه المقبرة عامة ، وهدموا جدرانها، وقد ضمت الآن إلى مقبرة يونرفيل .

فتح راوول الباب ، وما كاد يفعل حتى رأى شبحا يختفى فى زاوية الجدار ولكنه لبث جامداً لايتحرك حتى لايخيف لوسيل .. ولم تكن لحظت شيئاً : جميع آل يونرفيل فى هذه المقبرة .. هل تريدان تلقى نظرة ؟ إن المدخل قريب من هنا .

واجتازا الدرب وانعطفا إلى اليسار فإذا بهما فى الطريق القادم من البلدة والمؤدى إلى الباب العمومى للمقبرة .. وكان راوول يردد البصر حوله لعل الرجل لايزال يحوم فى المكان .. وهو بكل تأكيد أحد خدم البارون .. ومشت لوسيل فى ممر طويل تحفه الأشجار ثم انعطفت إلى طريق ثانوى أفضى بها إلى صف من القبور القديمة.. وكان راوول يفحص الأنحاء فى حذر بين وكان الصمت المطبق يثقل على الصخور والصلبان وباقات الزهور الذابلة .. وقرأ وهو شارد الذهن الكلمات المحفورة فوق الشاهد الرخامى .

هكتور يونرفيل

١٨٥١ - ١٧٧٢

كان كريما نحو الفقراء صلوا من أجله

هكتور يونرفيل ، صاحب القصة الذى تحدث الأستاذ فرينيزو عنه .. وعاد الحديث إلى ذهن راوول .. فرار لويس فيليب وعودته إلى يونرفيل .. ورأى فجأة ، على مقربة من القبر شاهدا آخر أكثر تواضعا وعليه الكلمات التالية :

ايفاريست فوتيريل

١٨١٦ ـ ١٩٠١

ماذا ؟ فوتيريل ؟ لقب أهل فاليرى .. افاريسى فوتيريل ، الخادم الوفى المخلص الذى تكلم عنه موثق العقود .. إذن فإن فاليرى هى الوريثة المباشرة لوكيل الكونت يونرفيل الشاب .. ايفريست الذى رافق الملك إلى تروفيل .. وإذن .. فان الشيخ برناردان .

وأمسك راوول بذراع لوسيل وسألها قائلاً :

ـ قولى لى .. برناردان ؟ أيمت بصلة القربى لايفاريست وتيريل ؟

ـ انه ابنه .

ومن جديد، أحس راوول بذلك الانبهار الذى ومض فى ذهنه فى المعرض .. ومرة أخرى خبا الوميض واكتنفه الظلام . طبعا .. كانت العلاقة واضحة بين السر الغامض وبين فوتيريل .. ولكن ماهو هذا السر ؟

واردفت لوسيل تقول : لقد عاش برناردان فى القصر طوال حياته .. لعب فيه وهو طفل ، تماما كما تفعل فاليرى الآن ، وإننى لاتساءل إذا لم يكن هو صاحب القصر الحقيقى .. لقد اختفى آل يونرفيل ولكن آل فوتيريل مازالوا باقين .

قال راوول فى حدة :

ـ كررى .. أعيدى هذا القول .

نظرت لوسيل إليه مشدوهة وقالت : ولكن هذا صحيح .. لقد مات آل يونرفيل ، ولكن آل فوتيريل يتعاقبون ، أبا عن جد وابنا عن أب .

تمتم راوول :

ـ آه .. هو ذلك .. هو ذلك حقا .

وفجأة ، وبذهنه المتوقد العجيب الذى يجعله يثب إلى النتائج المنطقية دون أن يتوقف فى المراحل المتوسطة عرف أن فاليرى تتعرض للخطر بدورها هى الأخرى وأن الاشقياء الذين لم يكن هناك شك فى أنهم لم ينالوا بغيتهم من الرجل العجوز لايسعهم الآن إلا أن يحاولوا اختطاف فاليرى .. وتذكر الشبح الذى سارع بالهرب عند زاوية الجدار وتمتم يقول :

ـ كلا .. لن أغفر لنفسى أبدا .

سألته لوسيل وقد ارتبكت ازاء القلق الذى رأته على وجه زميلها :

ـ ماالخبر ؟

ولكن راوول امسكها من يدها وجرها نحو الباب .. وفتتشت عيناه الممرات وحواسه لها متوقدة تسجل أقل صوت .. طبعا .. إذا كان البارون موجودا ولعله كان قريبا جدا .. لم يخمن طبعا من الذى يختفى تحت مظهر هذا الموظف الجديد الذى تدل هيئته على أنه غير خطر ، ولن يحاول أحد الاعتداء على ليونس كتارا .. ولكن لاريب أن رجاله قد أخبروه بلاريب أن لوسيل التى لاتخرج إلا فيما ندر .. كانت فى هذه اللحظة بعيدة عن البستان .

وراح راوول يجرى تقريبا .. وكانت الفتاة تجد صعوبة كبيرة فى اتباعه ، وكان الباب الصغير لايزال مفتوحا .. وسألها راوول :

ـ هل بقى برناردان فى القصر ؟

ـ كلا .. انه يسكن الكوخ الصغير الذى تراه هناك ، على اليسار .. ولكن دعنى ، فاننى أظن أننى سأقع .

أطلقها راوول وراح يجرى .. واجتاز فناء الشرفة وهو فى عجلة من أمره ، والتقى بأبولين : هل رأيت فاليرى ؟

ـ كانت هنا منذ خمس دقائق .. كانت تلعب أمام الباب ، ولاريب أنها عادت إلى الداخل .

ولكنه لم يكن مصغيا إليها ، فقد أسرع إلى الكوخ فى خطوات سريعة وهو يصيح :

ـ فاليرى .. ردى على .. فاليرى .

وفتح الباب ووقف ريثما يسترد انفاسه ، ولكنه كان قد عرف .

ـ فاليرى .

ودخل .. وفتش المطبخ وغرفة الطعام والغرفتين الأخريين على عجل .. اختفت فاليرى .. لم يكن بالكوخ أى مكان يمكن أن تختبئ فيه .. لقد اختطفت تحت انفه وبصره وعزم وسرعة يدلان على جرأة غريمه ووقاحته .. وفكر راوول .. ومع ذلك فقد داخلنى الشك ، ولكن الشك لم يكن كافيا .. آه ياللوغدّ ؟ انه جدير بأن يعذبها هى الأخرى .. وانغرزت اظافره فى راحتيه .. ودار حول نفسه حائرا محاولا تجنب الخطر ، وقد أحس بالذلة لأنه أخذ على غرة .. وتملكه الحزن بحيث تشنج حلقه .. هذه الصغيرة فاليرى .. الآمنة والجذابة بضفيرتيها الجميلتين وكراستها التى تمسكها بكل تلك الرقة مسألة الحساب .. قطاران .. وزمجر يقول :

ـ آه ، لسوف أقتله .

وجاءت لوسيل وهى تلهث وقالت :

ـ حسنا .. عم تبحث ؟

تمالك راوول نفسه على الفور وقال :

ـ فاليرى اختفت .

شحب وجه لوسيل بشدة ، وأسرع راوول يساندها قائلاً :

ـ لوسيل ، فى مقدورك أن تساعدينى .. لم يفت الأوان بعد .. إنها لم تذهب بعيدا بالتأكيد .. فلنبحث .. لاريب هناك دليل ما .. فلنفتش بهدوء .. ولنبدأ بالمطبخ .

اطاعته لوسيل ورافقته إلى المطبخ ، وبدأت ترفع المقاعد ، ولكنه أسرع يقول :

ـ كلا .. ليس هكذا .. البحث معناه النظر لكى نرى إن لم يكن قد نقل شئ من مكانه.. إن الأشياء تتكلم .

وراح يتقدم ويتراجع كما يفعل الرسام أمام اللوحة .. كان يحس بكل صغيرة ، ولم تجرؤ لوسيل على أن تتحرك .. وهتف فجأة :

ـ آه .. ماهذا ؟

وانحنى والتقط قصاصة الورق من جانب الساعة الكبيرة، وبسطها وصقلها بيده .. واقتربت لوسيل وقرأت معه :

"هاتى معك بالخطاب المخبوء خلف غلاف التوراة .. أنا فى انتظارك أمام الكنيسة بالغابة .. جدك" .

أدرك راوول أنهم أرادوا ألايستخدموا القوة مع الطفلة ، فقد خافوا أن تصرخ وتستنجد ولهذا أعطوها هذه الورقة واستمالوها إلى الفخ .. وهذا أفضل وأسلم .. التوراة .. لاريب أنها فى غرفة برناردان .

وعبر غرفة الطعام .. كانت التوراة فوق الطاولة بجوار الفراش ، وكانت عبارة عن كتاب ضخم مجلد بالجلد ، وفى الغلاف من الداخل ، تجويف رقيق كان من السهل إخفاء ورقة فيه .. ولكن المخبأ كان فارغا .

وهكذا سجل البارون انتصارا حاسما بعودته إلى الهجوم ، فقد اضطر الشيخ برناردان ، فى المحجر، تحت لسعة النيران إلى أن

يكشف لجلاديه وجود التوراة والسر الذى تضمه .. كان هذا السر لايزال موجودا قبل هذا بخمس دقائق .. ونظر راوول إلى ساعته .. خمس دقائق .. وما هى الدقائق الخمس ؟ إنه يستطيع أن يلحق بهم بالسيارة بكل سهولة .. آه .. لماذا دفعه الحرص إلى أن يحمل ليونس كتارا على القدوم بالقطار ؟

حاول أن يتظاهر بأنه واثق من نفسه وبأنه سيد الموقف ولكنه كان يسمع فى داخله نبضات التوتر التى تدق دون رحمة أو هوادة .

- لوسيل .. ماذا يوجد هنا من وسائل المواصلات ؟

- سيارة عمى .. ولكنه انطلق بها .

- وغيرها ؟ ألايوجد شئ آخر ؟

- بلى .. دراجتى .. وموتوسيكل أو بالاحرى سيدكار ، كان أبى يستخدمه فى تنقلاته للرسم .

- وأين هو ؟

- فى الجاراج .. ولكننا لم نستخدمه منذ وقت طويل .

- سوف استخدمه أنا .. أصغى إلى جيدا يالوسيل .. أثناء غيابى .. أوه لن يكون ذلك طويلا .. سوف تنسين كل ماحدث ، وسوف تخرجين وتقرئين وتقطفين الزهور، ولكن عليك ألاتفكرى فى أى شئ .. هل تسمعين ؟ ومن ناحيتى أنا، سوف أعيد إليك الصغيرة . اتفقنا ؟

كانت تنبعث من هذا الرجل قوة وسكينة بحيث أن الفتاة ابتسمت وقد شعرت بالاطمئنان .

وأمسكها راوول من كتفيها ونظر إليها مليا ثم قال : سوف تكون هنا الليلة .

ثم أسرع إلى الجاراج ، وهناك بارك اشيل لأنه كخادم أمين اعتنى

كل العناية بالسيدكار بحيث وجده راوول فى حالة صالحة ، ولكن المخزن كان فارغا ، ولحسن الحظ كانت بالجاراج بضع صفائح من البنزين، فملأ الخزان بكل دقة رغم الدقائق التى تمر ثم دفع السيدكار إلى الخارج وأدار المحرك وجلس أمام عجلة القيادة .. وضغط على الفرامل عندما بلغ المكان الذى تقف به لوسيل ، وكانت تنظر إلى كل مايفعل فى شئ من الذعر .

- تلك الكنيسة التى فى الغابة .. هل هى بعيدة ؟

- كلا .. بعد أربعمائة متر.. انطلق إلى اليمين ، بعد البستان وانطلق منتزعا بعض الحصى .. ورأى جدران الكنيسة التى يكسوها اللبلاب ووضع قدما على الأرض وتقدم محاذياً حافة الطريق وهو يفحص الغبار الكثيف فى هذا الفصل من السنة ، ولم يستغرق فحصه أكثر من بضع لحظات ، لأنه لم يلبث أن رأى الآثار، وعرفها دون مشقة .. عجلات سيارة من طراز دنلوب .. وقد عرفها بسهولة بسبب أضلاعها المميزة .. وكانت هناك بركة صغيرة من الزيت فى المكان الذى توقفت فيه سيارة المختطفين ورأى راوول ما حدث وفى وضوح كما لو كان يرى فيلما سينمائيا الطفلة الصغيرة تجرى وهى بالغة الانفعال "أين جدى" .. إنه هنا ، وهو فى انتظارك .. وتتقدم فى غير حذر ولكن يدا تكمم فمها وذراعا تحملها وتنطلق السيارة .

وتمتم يقول :

- ياللأوغاد !

وألقى نظرة إلى ساعته .. كان التأخير الآن قد بلغ ربع ساعة وعاد للانطلاق وهو يفحص الأرض من وقت لآخر متابعا آثار الدنلوب بين غيرها من الآثار .. ولحسن الحظ كانت السيارات قليلة فى هذه الناحية النائية من نورمانديا .. وعندما بلغ بون اوديمار أبلغ فلاح أن

سيارة سوداء مرت قبل ذلك بقليل وانعطفت إلى طريق روجمونتييه .

- هل كانت مسرعة .

- ليس كثيرا .. لاريب أن ركابها باريسيون لأنه واضح أنهم لايعرفون الطريق جيدا .

قال راوول محدثا نفسه :

- آه .. إنهم لايريدون لفت الأنظار إليهم .

وضاعف من سرعته .. وزمجر المحرك كأنه يشكو من الإعياء .. وانعطف في طريق روجمنتييه ، ولم يلبث أن رأى الآثار فى أحد المنعطفات ، فقد حادت السيارة عن الطريق ووطأت الأعشاب وراح راوول يسابق الريح وقد تشعث شعره واحمرت عيناه من الغبار وأخذ يتطلع إلى الطريق الذى أمامه محاولا أن يتحاشى الحفر والأخاديد ، ضاغطا بركبتيه على خزان الوقود تجنبا للوقوع .. ورأى عن بعد جرس كنيسة لابوى .

ياللعنة ! كان هناك حشد متجمهر من الناس في وسط الطريق ، حول عربة نقل سقط جوادها بين العريش .. وأبطأ سيره ودار بالحشد ورأى وهو يدور عينى الجواد البيضاوين ووجه صاحب العربة الشاحب .. وصعد فوق الطوار وتوقف بجوار غلام سأله قائلا:

- هل رأيت سيارة تمر من هنا منذ ربع ساعة ؟

- سوداء ؟

- نعم .

- والستائر مسدلة ؟

- نعم .

- ليس من ربع ساعة ياسيدى .. بل لا أكثر من أربع أو خمس

دقائق .. لأنها اضطرت أن تتوقف .

دهش الغلام حين أعطاه راوول قطعة نقدية من ذات الخمسة فرنكات ، وراح يتابع بعينيه ذلك الرجل النصف مجنون والذى تدمع عيناه وينطلق بالموتوسيكل بهذه السرعة المذهلة .. وكان راوول قد انعطف إلى الطريق المؤدى إلى نهر السين .. وفجأة رأى السيارة وهى تتقدم فى حذر بسبب المنعطفات الكثيرة .

ـ آه .. إنها لى الآن .

واندفع نحوها كما يندفع الصقر نحو فريسته .. وكانت نيته أن يسبقها ولو اقتضى ذلك منه القيام ببضع حركات بهلوانية وأن يقف فى عرض الطريق ، ولكن لاريب أن ركابها فطنوا إليه لأن السيارة أسرعت ، وظهر ذراع من النافذة وقذيفة صغيرة من الدخان .. ولم يسمع راوول الطفلة ولكنه خمن صفيرها وانحنى فوق عجلة القيادة وأبطأ وراح يمشى فى خط متعرج .

وأفرغ الرجل مسدسه كيفما اتفق ، ثم اختفى الذراع ، وانطلقت السيارة وقد ضاعفت من سرعتها .. واستشعر راوول فجأة ما سوف يقع فضغط على الفرامل فى قوة وانطلق بانحراف بين جانبى الطريق فى حين صعدت السيارة الثقيلة ممرا جانبيا واصطدمت بشجرة فقدت توازنها تماما وهوت فى النهر ، وعلى حافل الساحل .

وتناثر الماء وتطايرت رشاشات منه على وجه راوول الذى كان قد انحنى فوق الشاطئ وبدأ يخلع سترته .. وامتدت فى وسط النهر دوامة كبيرة بيضاء فى نفس الوقت الذى طفت فيه على سطح الماء رأس ثم أخرى .. وألقى بنفسه فى الماء وراح يسبح فى قوة نحو فاليرى ، وكانت توشك أن تغرق ، وأمسكها فى اللحظة التى همت فيها بأن تختفى .. أما الغريق الآخر فقد أسرع نحو الشاطئ دون أن

يهتم بفريسته .. وصاح به راوول : سوف نلتقى .

وشرب جرعة كبيرة من الماء وغطس .. وحمله التيار إلى شاطئ صغير ، وانصاع له وهو يحمل فاليرى ، ولم تكن قد فقدت الرشد .. ولحسن الحظ كان الطقس حارا فى ذلك الوقت من شهر يونية ، مما جعل الحمام الاضطرارى أقل خطرا ، ووضع قدميه على الشاطئ دون صعوبة ، ورأى منحدرا أفضى به إلى طريق غير بعيد عن الموتوسيكل .. وكانت فاليرى قد أحاطت بذراعيها الرقيقتين عنق ذلك الرجل الغريب الذى رأته موظفا خجولا متواضعا والذى يضعها الآن فى رفق فى السيدكار الذى طالما تحدث عنه أشيل بكل سخرية .

ـ سوف أجففك ياصغيرتى ثم أعيدك إلى البيت .

ولم تعرف الصوت هو الآخر ولكنها أحست بالاطمئنان وتكومت فى مكانها وقد غلبها النعاس رغم البرد .. لعل الأب نويل ، عندما كان شابا كان يشبه هذا الرجل الغريب الأطوار الذى يدير محرك السيدكار الآن .. وكانت غارقة فى النوم عندما توقف راوول فى فناء إحدى المزارع ، وقال انه تعرض لحادث غير خطير ، ولم تسمع الطفلة المزارعة وهى تترفق بها وتلفها فى غطاء دافئ وتشعل النار .. وشربت قليلاً من اللبن الساخن دون أن تفتح عينيها .. ولم يكن يشغلها غير فكرة واحدة كشعلة صغيرة من الفرح : أنا الآن آمنة .. إننى الآن فى أمان .

ولم تستيقظ تماما إلا فى طريق العودة .. وكان زميلها منطلقاً بسرعة عادية .. وأحست بالراحة والهدوء بعد القلق الذى سيطر عليها أثناء سباق السيارة الرهيب .

وسألها راوول :

ـ هل أنت على مايرام ياصغيرتى ؟

ابتسمت من غير أن ترد ، ولكنها مدت يدها إليه فضمها فى حنو كبير وهو يقول :

- هل قطعوا لسانك ؟

- أوه ، كلا ياسيدى .

- كم رجلا كان معك .

- ثلاثة .

ياللشيطان ! سوف تخرج جماعة البارون من المغامرة حتما .

- ماذا قالوا لك ؟

- إنهم سيمضون بى إلى جدى .

- والخطاب الذى أخذته من التوراة .

- أخذوه منى .

- هل قرأته ؟

- كلا .. ولكن جدى كان يقرأه من وقت لآخر أثناء الليل ويبكى .

- وما شكله ؟

ترددت الطفلة ، فإنه يسألها الآن شيئاً صعباً جداً .. وعاد راوول يسأل :

- هل كان قديما ؟

- نعم .. كان هذا يبدو من ثنياته .. وكذلك المظروف .. كان مصفرا .

- آه .. كان هناك مظروف اذن ؟ وهل كان يحمل عنواناً ؟

- نعم .. حضرة الكونت يونرفيل .

- حضرة الكونت ..

أبطأ راوول مرة أخرى ، فهو يقترب الآن من النهاية :

- ومن أين أتى ؟ أولى أن تتذكرى .. كيف كان الطابع .

- أوه ، كان طابعا قديما .. وعليه رأس سيدة .. كان جدى يقول أنها الملكة فيكتوريا .

هكذا .. الملكة فيكتوريا .. خطاب مرسل من إنجلترا للكونت يونرفيل ! فى أعماق الظلام الذى يتخبط فيه راوول ، ومضت نقطة مضيئة تشير إلى المنفذ البعيد للنفق .

واستطردت فاليرى تقول :

كان جدى يقول لى إنه سيعطينى إياه عندما أكبر ، وانه لايجب أن أتخلى عنه أبدا .

زمجر راوول .. "سوف نسترده ، وسأعيد إليك جدك أيضاً " .

قالت فاليرى :

- ربما ينهروننى فى القصر لأنه ليس لى الحق فى الخروج من غير اذن .

- كلا . سوف اهتم بذلك .

وألقى نظرة إلى ساعته وأردف :

- ثم إننا سنبلغ القصر قبل عودة السيد فيرانج ، فاطمئنى .

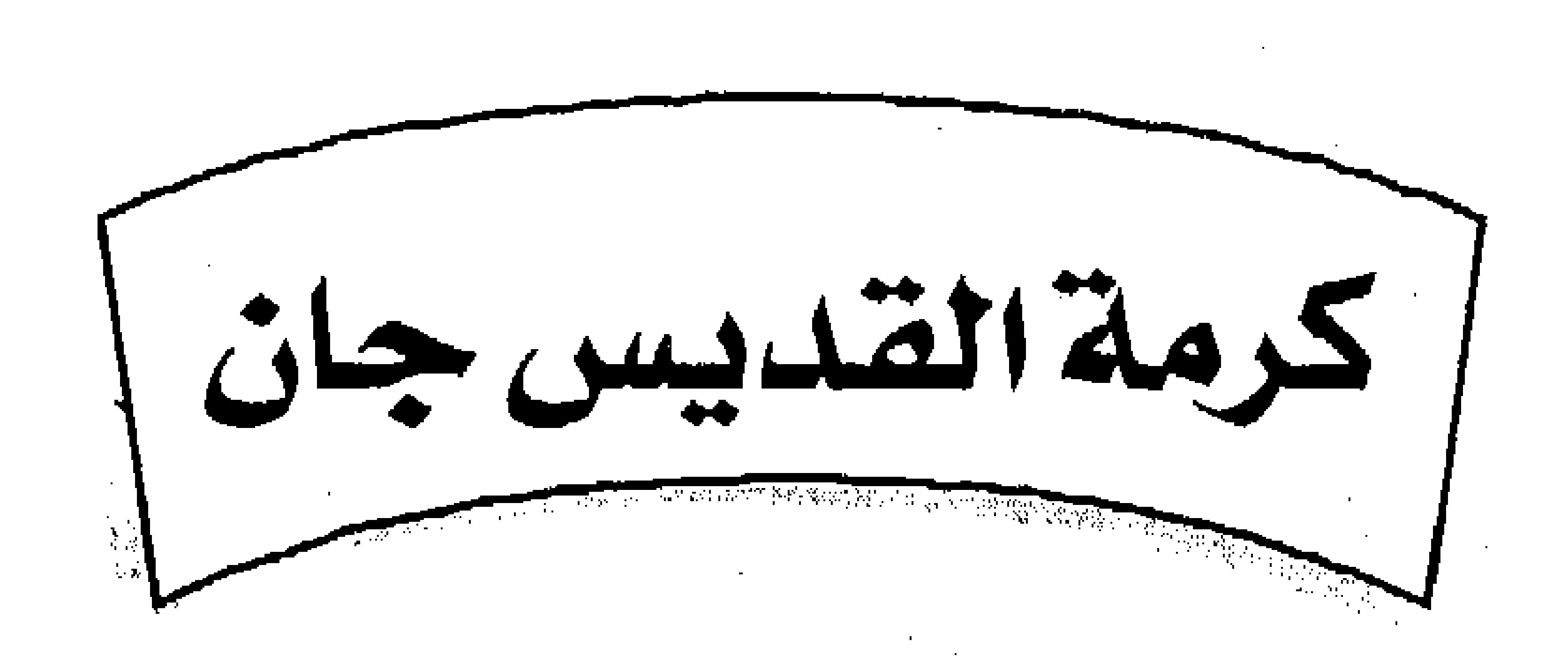
سكتت الطفلة وقد شعرت بالاطمئنان .. وراح راوول يفكر .. هذه المحاولة الجديدة التى اقدم عليها البارون تدل على أنه لايملك كل الأوراق ، ولاريب أن مذكرات الكونت يونرفيل لم تفده بشئ .. ومادام هناك سر فلابد من الاعتراف بأن هناك شفرة تحميه.. شفرة لم

يستطيع البارون حل رموزها ، كما لم يستطع حل رموز الكلمات :
يعقوب .. القديس جان .. دارتنيان .. يبقى خطاب إنجلترا .

وقال راوول :

ـ نحن متعادلان .. إن معه الخطاب ومعى الجلد ، وهذا الأخير يعرف مضمون الخطاب عن ظهر قلب وسوف يذكره لى ، وإلا فلن يبق أمامى إلا أن أعمل غفيرا .. هيا ياصاحبى ، إن الحياة جميلة !





كرمة القديس جان

استعاد راوول دون أى جهد شخصية أمين المكتبة ، وبدأ عمله مثيرا ارتياح سيد القصر ، فما أن يغادر هوبير فيرانج البيت ويمضى إلى المصنع حتى تأتى لوسيل وتنضم إلى ذلك الذى مازالت تعتبره صحفيا وكانت تساعده بقدر استطاعتها وكان يطوف بالجزء العلوى من المكتبة وينطق بعناوين الكتب وأسماء المؤلفين فتدونها فى سجل بعناية كبيرة . وكان ينحنى أحيانا فوق الدرابزون ويتأمل الفتاة وقد انحنت فى رقة فوق السجل ، ثم يتملكه الارتباك ويعاود عمله . ولكنه رغم ذلك لم ينس مهمته لأنه كان يحس أن العدو يحوم حول يونرفيل . غير أنه منح نفسه مهلة بجوار الفتاة الفاتنة ، ومن ناحيتها هى ، لم تعد تستطيع الاستغناء عنه .

وكان قد مضى يومان على اختطاف فاليرى لم يقع فيهما أى حادث مؤسف .. وكان راوول يصطحب البولدوج ، وكان قد تصادق معه، ويقوم بالتفتيش سرا ، بعد أن ينام الجميع ، ويتحقق من الأقفال والأبواب والنوافذ . وكان يقوم أحيانا أثناء الليل ويتجول فى الممرات الكبيرة الواسعة أو يمضى ويتأمل لوحات المعرض ، ويفحص الجدران بسبابته وهو لايدرى عم يبحث.. ربما عن ممر سرى وربما عن مخبأ . وكان يعلم أنه يجب أن يعود إلى برونو وأن يتعجل الشيخ برناردان ، ولكنه كان يقول لنفسه إن من الحكمة أن يترك الشيخ العجوز حتى يطمئن ويأنس إليه ويفهم أن من مصلحته أن يتكلم.. ثم انه كان يهبط

إلى قرارة نفسه وينظر فى شئ من الانقباض إلى الحقيقة دون مواربة ويقول : أنت تحبها .. كن صريحا .. إنها تحرك مشاعرك بشبابها .. وأنت ؟ أنت تثير خجلى .. ولكن افتح عينيك .. أنت أول رجل تلتقى به .. ثم إنك غامض وتثير إعجابها فى نفس الوقت ، فلا عجب إذا خفق قلبها أمامك .. ولكن حذار أن تلمسها يالوبين .. عليك أن تنصرف على أطراف قدميك بمجرد أن تفرغ من هذه القضية .. لن تكون بالنسبة لك أكثر من ذكرى .

ثم وقع حادث أثار اضطراب راوول وقلقه ، فبينما كان يفحص الكتب والأضابير الموجودة فى آخر المكتبة اكتشف مظروفا كبيرا أصفر ، وهم بأن يفتحه حين أسرعت إليه لوسيل وهى مضطربة الوجه وهتفت تقول :

- كلا ، أرجوك ، لاتنظر إلى ما بداخله .

قال فى شئ من الاستياء : آه، حسنا . ليس من عادتى الفضول .

- أتسخر منى ؟

- لوسيل .. وهل أسخر منك حقاً ؟

- إنك تخمن كل شئ ، فقل لى ماذا يوجد فى هذا المظروف .

- لا أدرى .. يبدو أنها قصاصات جرائد .

- هو ذلك .. إننى اقتطفها من بعض الصحف القديمة .. ثم ولكن لا أهمية لهذا .. لا أريد أن أخفى عنك شيئاً .. هيا .. يمكنك أن تفضه .

أطاعها راوول وأجفل على الفور ، فقد عرف هذه القصاصات كانت تضم كل المقالات التى سبق أن أرسلها إلى جريدة "ايكو دى فرانس والفيجارو والجولوا". يتهكم فيها من ضحاياه ، ويعلن عن نواياه أو يدافع عن سمعته. وتملكه انفعال شديد واغمض عينيه وراح

يستظهر إحدى هذه المقالات . وشاركته لوسيل لعبته وأغمضت عينيها هى الأخرى واستظهرت مقالة ثانية .. وراح كل منهما يتحدى الآخر ويستظهر التواريخ .. سنة ١٩١١ .. كلا ، بل سنة ١٩١٢ . وكانت لوسيل هى الرابحة ، وأوشك أن يقول : إننى نسيت فقد وقعت أحداث كثيرة منذ ذلك التاريخ ، وانفجرا ضاحكين كما لو كانا طفلين .

وسألته لوسيل : إذن فأنت شديد الإعجاب به أنت أيضا ؟

- الحق إننى ..

وعادت تقول فى ارتباك ظريف : أما أنا فإننى أكن له .. أكن له .

همس راوول وقد شحب وجهها :

- تكلمى .

- إنه جذاب جدا .. وغريب الأطوار حقا .. وعمى تأتيه كل صحف باريس .. تماما كما كانت تأتى لأبى، وهكذا استطعت .. ليس ممنوعا أن يحلم المرء .. أليس كذلك ؟

- يقينا لا .

- كنت أتصور أنه .. أوه .. هذا أمر مضحك .. كنت أتصور أنه قد يأتى ذات يوم ، فالقصر مشحون بأشياء تستحق السرقة .. ولكنه لم يأت أبدا .

صاح : ولكن .. أرسين لوبين ليس كما تتصورين .. إننى على يقين من ذلك لأننى التقيت به .

- التقيت به ؟

ولمعت عيناها فضولا وانفعالا.. واضطر راوول أن يبذل جهدا كبيرا لكى لايضمها بين ذراعيه، وابتعد عنها قليلا .

- نعم .. التقيت به كثيرا ، فمهنتى تقتضى أن التقى بجميع

الناس تقريبا .

- وكيف هو ؟

- أوه .. إنه رجل عادى كغيره من الرجال .

قالت لوسيل وهى تضم يديها :

- بل هو رجل عجيب ، فبالنسبة لى أنا التى أعيش هنا سجينة القصر، يبدو لى ذلك الرجل الذى عاش كل هذه المغامرات أنه ..أنه.. لا أستطيع أن أفسر لك .. لو أنه ظهر أمامى فجأة فأظن أنه سيغمى على أو أننى سأقدم على شئ غير لائق .

وعاد سيد القصر فوضع فجأة نهاية لهذا الحديث .. ومضى إلى المائدة . ولكن راوول كان شارد الذهن وراح ينظر إلى لوسيل خلسة ، وكانت لاتزال بادية الانفعال ، وكان فيرانج يتكلم ويتكلم .. ولكن عم كان يتكلم فى الواقع ؟ عن الصيد.

كان يقول : فى الماضى كان البستان أكبر من ذلك بكثير. كان عبارة عن غابة تمتد بعيدا حتى جسر أوديمار، وكان أشراف يونرفيل يملكون سربا من كلاب الصيد، ومازالت هناك حتى اليوم شرفة كبيرة فى جناح لويس الثالث عشر كانت سيدات القصر يشهدن منها هجوم الكلاب على الفريسة كما يحدث فى مدينة شامبور .

قال راوول فى لهجة مهذبة ، وكان ذهنه فى أماكن أخرى :

- هذا غريب جدا .

- أليس كذلك ؟ سوف تمضى إليها بعد أن نفرغ من الطعام ما دامت تهمك هكذا .

- كما تشاء .

وهكذا ، وبعد أن فرغا من تناول القهوة تأبط فيرانج ذراع كتارا

فى غير تكليف وقال :

- آه أعلم أن الدرج الذى يؤدى إلى الشرفة قد نخره السوس بحيث انتهى به الأمر إلى أن انهار . ونحن نستخدم سلما خشبيا مؤقتا . ولكن لاتخش شيئاً .. إنه سلم متين ، وأنا وزنى أكثر منك بكثير وأصعد بسهولة ، وامضى من وقت لآخر إلى تلك الشرفة لأستمتع بالمنظر الجميل الذى يطالعنى من هناك . وسوف ترى بنفسك .

وبلغا آخر الممر الطويل الذى يؤدى إلى غرف الطابق الثانى غير المسكونة ، وفتح فيرانج بابا أفضى بهما إلى مخزن دائرى .

وقال هوبير فيرانج : البرج الغربى .. وهذا هو السلم .

وقال كتارا مذعورا : ياإلهى .. إنه عال جدا .

- سأتقدمك وأريك الطريق .

وإذ قال سيد القصر ذلك أمسك بقائمتى السلم وبدأ يصعد .

وقام أمين المكتبة الشاب بدوره بأعجوبة وأبدى فزعا طرب له فيرانج كثيرا وقال : إن السلم ينثنى قليلا بالطبع ، ولكننى أؤكد لك .

وكان قد بلغ قمة السلم . ودوت طقطقة ، ولم يجد راوول الوقت المناسب لكى يثب بعيدا ، ووقع فيرانج عند قدميه مثيرا سحابة من الغبار . وانحنى راوول فوقه . كان الرجل قد فقد الرشد وانساب خيط رفيع من الدم عند أذنه ، وانحنت ساقه اليسرى بصورة غريبة . وصعد راوول السلم فى خفة . وكانت العارضتان العلويتان قد انكسرتا . وأثبت له فحص سريع أنهما نشرتا عند مستوى القائمتين وكانت أسنان المنشار واضحة جدا .

وهبط راوول وهو مشغول البال . لم يكن حادثا عرضيا وإنما كان تخريبا متعمدا تم بحذق ودهاء . مرة أخرى سبقه العدو وعمل فى

الخفاء .. ومرة أخرى كان فى مكيدته الضارية شئ أشبه بطريقة البارون .. مكيدة حاذقة ولكنها شديدة القسوة .. ولكن من هو ؟ من هذا المخلوق الخفى الذى لايرحم ، وأية معاهدة بشعة عقدها مع جالسيران ؟

تردد راوول . هل ينبغى أن يترك سيد القصر المسكين لكى يسرع وينبه لوسيل بالخطر ؟ ولكنه لم يلبث بعد شئ من التفكير أن أدرك أن الشرك قد أعد منذ وقت طويل ، وأن الذى أعده شخص راح ينتظر فى صبر فى مكان آمن كما فعل مع جاك فيرانج وزوجته ، وأن فى مقدوره إذن أن يترك سيد القصر وحده بضع دقائق أخرى .

وتظاهر بالذعر وأسرع يبحث عن عون ، وعاد بأشيل وأبولين وبينما كان الخادمان يحملان سيدهما ، وكان لايزال مغمى عليه ، إلى غرفته ، أخطر لوسيل بما حدث وطمأنها فى نفس الوقت بقدر استطاعته ، ثم أرسل أشيل إلى البلدة لكى يأتى بطبيب .. وكان الفضل له فى عودة الهدوء والنظام فى بضع دقائق . وخلعوا عن فيرانج المسكين ثيابه فى حرص شديد ومددوه فى فراشه ، وعاد إلى رشده فى بطء ، وجلست لوسيل بجواره ، وجففت أبولين دموعها فى حين كان السكرتير العديم الشأن فى كل مكان ، يساعد الجميع ويتخذ أعجب الإجراءات مبرهنا للجميع خفية مقدرته وكفاءته بحيث إنه ، بينما كان يعد جبيرتين ، أمسكه سيد القصر بيده وقال :

- أشكرك .. أشكرك .. إننى أدين لك بالكثير ، ولن أنسى جميلك هذا أبدا .

- صه .. لاتتكلم ولاتنفعل .

- لا أدرى كيف حدث هذا .

- بأسهل ما يكون ، فإن وزنك ثقيل فانكسرت عارضتان .. آه .. ها

هو الطبيب .

وابتعد مع لوسيل ، وانتظر نتيجة الكشف فى الخارج . وسألته الفتاة : هل تظن أنه حادث وقع قضاء وقدرا ؟

- كلا للأسف .. فقد نشر بعضهم عارضتين بالسلم .

- رحماك يا إلهى .. متى ينتهى هذا الكابوس .

- قريبا ، أعدك بذلك .

- ألا يجب أن نبلغ البوليس ؟

- أبداً . لايجب هذا على وجه الخصوص ، فنحن لانملك أدلة كافية ثم إننا أمام أعداء ماكرين لن تهمهم تحريات البوليس فى شئ . كلا . إنما يجب أن نضاعف من احتياطاتنا . ومن ناحيتى ، لن أبقى مكتوف اليدين كما تظنين .

وفتح الباب عندئذ واستدعاهما الطبيب ، وكان صريحا لأنه قال :

- إننى سأنقل مسيو فيرانج ، فإن حالته تزعجنى كثيرا . سوف أعالج ساقه بدون مشقة ولكن قلبه ليس سليماً تماماً ، ولاريب أن الصدمة كانت عنيفة جدا . ما كان يجب أن يقوم بأعمال الشباب وهو فى هذه السن . سوف يساعدنى أشيل وننقله إلى عيادة هونفلور ونضعه تحت الفحص بضعة أيام . وأرى أنه سوف يشفى سريعا ، ولكن الحرص واجب .

ودخل أمين المكتبة الغرفة وحيا مسيو فيرانج فى رفق وتمنى له الشفاء العاجل ثم خرج كما تقضى المجاملات . ولكنه بدلا من المضى إلى غرفة المكتبة عاد على البرج الغربى . وما هى إلا لحظات حتى أسند السلم إلى الحائط بخفته ورشاقته المعهودتين .

لم يكذب سيد القصر ، فقد كان المنظر من أجمل المناظر التى

رآها فى حياته . ولكن راوول لم يكن فى القصر للفرجة أو السياحة ، فبعد أن ألقى نظرة سريعة على الريف الذى أضفى عليه الصيف لونا ذهبيا ، وعلى المقبرة والبرج القديم المهدم الذى رأى منه قصر يونرفيل لأول مرة ، وبعد أن ألقى نظرة يقظة إلى فناء الشرف حيث كان أشيل وأبولين ينقلان المصاب إلى السيارة ويدثرانه بالأغطية فى عناية فائقة ، نقل اهتمامه إلى الشرفة وعبارة فاليرى الصغيرة ترن فى أذنيه . "إنه يمشى على أربع فوق السطوح" . ولكن أى سطوح ؟ .. على هذه الشرفة لم يكن هناك داع لأن يمشى المرء على أربع لأن فى مقدوره السير على أتم راحته . ولكن كان من المستحيل الانتقال منها إلى مكان آخر لأن الألواح الحجرية كانت شديدة الانحدار .. فما معنى العبارة التى ذكرتها الصغيرة .

اعتمد راوول بذراعيه على الدرابزون الرفيع الذى يحيط بالشرفة وتابع بعينين فاحصتين السيارة وهى تنطلق بالمصاب . كان من السهل طبعا وضع قائمة .. جاك فيرانج وزوجته قتيلان .. وهوبير فيرانج فى المستشفى وفى خطر كبير ، فقد يموت هو الآخر ، ولوسيل التى نجت من حادث والتى لازالت تتعرض لخطر فظيع.. وإذن ؟ يتبقى ثالث الإخوة فيرانج إذن العلم الذى تحدثت عنه عرضا والذى يؤول إليه قصر يونرفيل والممتلكات الملحقة به بعد موتهما .. هذا غريب .. لا أثر من هذه الناحية .. ولكن مهما يكن من أمر فما هى العلاقة بين هذه المحاولات وبين الموت البشع لصاحبى القصر السابقين ؟ وأية علاقة بينهما وبين يعقوب والقديس جان ودارتنيان .. والدم ؟ .. أهو دم كل هؤلاء الضحايا ؟

فى تلك اللحظة ، وكان راوول يلقى نظرة أخيرة إلى الأسطح لكى يقنع نفسه بأن العصفور وحده يمكنه أن يمشى فوقها ، ورأى شيئاً أثار كل اهتمامه ، فإن إحدى الهوائيات العديدة التى ترتفع فوق

الأسطح لم تكن تدور . وفى حين إنها كانت تشير كلها إلى الشمال الشرقى ، وكانت الأسطح حافلة بكل نوع منها ، ومن أعلام مختلفة إلى حيوانات وسهام بسيطة معدنية ، كانت هناك واحدة ظلت تشير إلى الجنوب فى إصرار ، وكانت تلك الهوائية تمثل فى صورة فظة هيئة إنسانية .. جنديا شاهراً سيفه .

وفجأة ، فهم راوول . كلا .. لم يكن جنديا عاديا وإنما كان فارسا .. ولكن .. ولكن .. أنت مخطئ يالوبين ، وإذا استمررت على هذا فسوف ترى فرسانا حتى فى السحب التى تمر فوقك .. ومع ذلك ، كان الصدأ يعلو الهوائية .. تأكلت بفعل الدخان وتقلبات الجو ، ولابد أنها فى مكانها هذا منذ أجيال طويلة . ولكن المعطف ذا الثنيات المتوترة التي تتعرض للريح ، كشراع سفينة والسيف المشهر نحو السماء والحذاء .. نعم ، هذا فارس حقا .

واحتد راوول غضبا لأن هذه الأدلة التى زرعها قدر ساخر تحت قدميه ، كفتات الخبز لم تكن تؤدى إلى شئ .. دارتنيان يفوز بالمجد والثروة بحد السيف . ها هو الآن أمام دارتنيان ، ولكن الام يشير بسيفه ؟ إلى الريف أم إلى السماء ؟ أم الفضاء .. ثم . هناك دارتنيان آخر فى قاعة المعروضات ثم .. ولكن ، لاداعى لأن يشغل ذهنه ويفرط فى التفكير . وسوف تأتى اللحظة التى تلتئم فيها جميع قطع اللغز .. كانت قوة هذا الرجل الفذ فى أنه لم يكن يكابر ويعاند نفسه .. كان يعرف خيرا من أى شخص آخر اللحظة التى يتيح فيها الاستنتاج والمنطق وحدهما إحداث ثغرة فى جدار الظواهر المضادة . وإذا بدا له الطريق مسدودا فى أية لحظة فإنه يغير الاتجاه على الفور ويبحث عن منفذ فى مكان آخر . وكان المنفذ فى الوقت الحالى هو الفونس فيرانج .

هبط راوول دون أية مشقة وطفق يبحث عن لوسيل ، ووجدها في غرفة المكتبة ، وما أن رأته حتى حاولت أن تخفى دموعها فقال :

ـ ليس هذا بجميل .. اتنتهزين فرصة أن أوليك ظهرى فتبكين كما لو أننى لا أستطيع الدفاع عنك .

تمتمت : ذلك أننى خائفة جدا . سيلحقون بك الأذى أنت أيضا .

ـ أنت تعذبين نفسك من أجلى إذن ياعزيزتى لوسيل .. لو أطلعتك على قصتى فسوف ترين إننى اجتزت أخطارا أخرى كثيرة بدون ألم ..

كان شديد الانفعال . وفى رفق كبير أحاط كتفى الفتاة بذراعه وقال :

ـ لا تخشى شيئاً يالوسيل .. أنا كالمداخن والنار غذائى .

ابتسمت خلال دموعها وقالت : إنك تشبه .

ـ من هذا ؟

ـ هو .

وأشارت إلى المظروف الذى يحتوى على قصاصات الجرائد ، وقال راوول مازحا :

ـ أوه .. وددت ذلك ، ولكننى دونه بكثير . ومع ذلك فإننى أعرف ما قد يفعل لو أنه هنا .

ـ وماذا يفعل ؟

ـ سيلقى عليك أسئلة لانهاية لها ، سيطلب منك أن تزوديه بكل ما تعرفين عن عمك الفونس .

كانت لهجته مرحة فيها سخرية يشوبها شئ من الرقة .. كان يملك

قدرة عجيبة لبث الهدوء فى القلوب . ونسيت لوسيل قلقها وردت عليه فى نفس اللهجة المرحة :

- كنت أقول له : سلنى يامسيو لوبين ، فإننى لن أستطيع أن أخفى عنك شيئاً .

- حسنا . فلنبدأ إذن . أريد أن أعرف قبل كل شئ آخر لماذا لا نرى هذا العم أبدا . كان يجب ، طبعا ، أن يشعر بشئ من القلق عليك وعلى أخيه ، وأن يأتى لزيارتكما أو أن يدعوكما لزيارته .

- إن عمى هوبير لايحبه كثيرا . ويجب أن اعترف بأنه ليس ودودا مع أحد . ومهما يكن فهو يعيش فى عزلة كالرجل المتوحش .

وتنهدت : ومع ذلك فإن والدى كانا متفاهمين جدا معه ، وأبى على الخصوص .

- وأين يقيم ؟

- ليس بعيدا من هنا .. بعد كنيسة سانت ادريس . قد مررنا به فى عودتنا من "الصخرة الكبيرة" . ولا أذكر إذا كنت قد حدثتك عن ذلك ، ولكن "الصخرة الكبيرة". كان جزءا من أرض اشتراها أبى قبل زواجه بكثير.. وفى أسفل الصخور، هناك البيت .. أعنى الكوخ الذى تعرفه .

وارتجفت فتمتم راوول :

- نعم .. تكلمى فإننى أعرفه .

- وهناك ، بعده بقليل ، فوق التل ، البيت الذى كنا نعيش فيه .. فى وسط مزرعة كان أبى قد اشتراها بثمن زهيد وادخل عليها إصلاحات لكى تكون مقاما مريحا ، ثم تنازل عنه لأخيه الفونس بعد أن اشترى يونرفيل ، غير أنه احتفظ لنفسه بالصخرة الكبيرة .

- لقد كان هذا كرما منه .

- كان أبى كريما جدا فى الواقع .

- وماذا فعل هذا الأخ ؟

- لاشئ يذكر.. فكر فى أن يكتب.. وكان قد كتب في شبابه ديوانا من الشعر .. بضع قصائد على نمط هيريديا لأنه كان معجبا به جدا . ثم كتب بعض الروايات بعد ذلك ثم فترت همته شيئاً فشيئاً .

- معنى هذا أنه رجل فاشل .. وفى أثناء ذلك كان يرى أخويه يزدهران وهذا البيت ، هل يعرف باسم ؟

نعم . كرمة القديس جان .

وكان راوول قد ألقى هذا السؤال بطريقة آلية ما كاد يسمع الرد حتى أجفل .

- كرمة القديس جان ! ..

قالت لوسيل :

- نعم .. وما الغرابة ؟

- لاشئ .. لاشئ بالطبع .

ولكن حاجته إلى العمل جعلت الدم يغلى فى عروقه ، فقال :

- هل هو الذى أطلق على البيت هذا الأسم ؟

- كلا . كان البيت معروفا بهذا الاسم عندما اشتراه أبى .

خفض راوول صوته وقال : أين كلبك ؟

- فى غرفتى . نائم .

- أريد أن تصطحبيه ابتداء من اليوم فى كل مكان .

ووضع إصبعا على شفتيه، وفى ثلاث خطوات كان بجوار باب قاعة

المعرض ، ففتحه فى عنف . ولكن لم يكن هناك أحد . وارتد صوت اصطفاق الباب مدة طويلة كرنين الجرس فى قبعة الكنيسة . وعاد على عقبيه وهو يحاول أن يتظاهر بالهدوء وعدم الاكتراث .

- معذرة . خيل لى أننى سمعت .. هذا سخيف . أن أبولين لديها ما يشغلها طبعا غير استراق السمع .

- أوه .. إننى أكفلها .. وأكفل زوجها أيضا .. إنهما شديدا الإخلاص لنا ثم إن أشيل لم يعد بعد .

غير أن راوول لم يكن يفكر لا فى أشيل ولا فى أبولين .. وإنما كان يفكر فى "الآخر" .. فى ذلك الذى نشر العارضتين والذى خرب قبل ذلك مركبة الفتاة ، وأعد فخ الباب القلاب .. أهو الذى كان يقف منذ لحظات عند باب المعرض .. ذلك لأنه كان هناك شخص يقف بالباب بالتأكيد .. وكان راوول واثقا من ذلك .. أيمكن أن يكون هو البارون .. ونظر إلى ساعته .

- عودى الآن إلى غرفتك. وعندما تغادرينها بعد عودة أشيل اصطحبى بولوكس معك .. هل تسمعين ؟ أما أنا فلدى عمل خاص أريد أن أتحقق منه ، وسأبقى فى الخارج وقتا طويلا ، وأريد أن يكون قلبى مطمئناً . وبهذه المناسبة ، قد أحتاج إلى مفتاح إذ ليس فى نيتى أن أطرق الباب ربما فى منتصف الليل .

- هذا أمر ميسور . سأعطيك مفتاحى فإننى لا أستخدمه أبدا . تعال . إنه فى درج مكتبى .

وخرجا من المكتبة . وقال راوول : ولكن لاتتوهمى أن هناك أشياء بحق الله . أنت لست فى خطر .. فى الوقت الحالى على الأقل ، فنحن نواجه رجلا يأخذ كل وقته ويتصرف تصرف القناص ، فهو يلقى بشباكه وينتظر فى صبر فى الأماكن التى يمر ضحاياه دون حذر ..

ولكن إذا توخينا الحرص وظللنا متيقظين فلن نتعرض لأى خطر .. الخوف ممنوع وأنا غائب .

ـ لن أخاف .

وبسطت له يديها في براءة ، وأحس بأن رباطة جأشه ستخونه فتمتم :

ـ امضى سريعا . اعطينى هنا المفتاح لكى أذهب . آه .. نسيت .. سأستقل السيدكار، ولك أن تقولى لاشيل ما تشائين .

وانتظرها أمام إحدى النوافذ الكبيرة التى تطل على فناءالشرفة . كان كلما ازداد تفكيرا كلما ازداد اقتناعا بأن العدو ذكى وشديد الحرص لكى يقوم بمحاولة أخرى فورا، وكلما ازداد اقتناعا كذلك بأن العم الفونس يلعب دورا فى هذه المأساة الغامضة . ولكن كيف ؟ إنه لم يكن يستطيع أن يظهر حتى لايفتضح أمره على الفور . ولكن ذلك الذى كان راوول يدعوه بالوحش كان يبدو انه يعيش فى جواره آل فيرانج ، ويتجول فى القصر كمخلوق خفي . كان هناك سر مخيف فى هذا الصدد .

قالت لوسيل :

ـ ها هو المفتاح .. توخ الحرص .

كانت تقف بجواره، بريئة ، مطمئنة، آمنة بوجه انثى وعينى طفلة .

وأردفت تقول فى تلقائية :

ـ سأفكر فيك كثيرا .

وهم بأن يصرخ :

ـ ولكن احتمى بالله .. ألاترين أنك تعذبينى وأننى لا أطيق .

وأخذ المفتاح واختفى . ونقل غضبه الذى يغلى فى كيانه إلى

الموتوسيكل ، على أن غضبه هذا لم يكن غضبا بمعنى الكلمة وإنما كان حزنا وشجنا . وخطر له لحظة أن ينعطف إلى طريق آخر لكى يمضى ويستجوب الشيخ برناردان وأن ينتزع منه سر يونرفيل طوعا أو كرها ، ولكنه عدل عن غرضه هذا خوفا من أن يضيع وقتا ثمينا. ولكن عندما وصل إلى الهافر تعطل الموتوسيكل واضطر أن يبحث عن جاراج وأن يعود بالميكانيكى الذى راح يفحص المحرك فى غير اقتناع ويردد فى إصرار : إنها الشمعة .. هى الشمعة بالتأكيد .. وعندما أصبح السيدكار صالحاً للاستعمال أخيرا كان الليل قد بدا يهبط ، ولو أنه مرت دقيقة أخرى على الميكانيكى لما كان هناك أى شك فى أن يكتم راوول أنفاسه .

وانطلق أخيرا فى طريقه إلى سانت ادريس ، واندفع غير آبه بالحفر والأخاديد حتى الطريق المؤدى إلى الصخور والمنحدر حيث يقع بيت " الصخرة الكبيرة " . وحيث يجب أن تكون "كرمة القديس جان" . على يمينه . وترك السيدكار خلف أجمة وسار مسرعا . كانت كرمة القديس جان حقا يحيط بهم سور قديم يكاد يكون مدفونا فى غابة من النباتات المتسلقة ويستطيع طفل أن يتسلقه دون صعوبة . واجتازه راوول ورأى البيت . كانت لوسيل قد تكلمت عن مزرعة قديمة ، وتوقع أن يجد بيتا قديما ولكن كانت دهشته كبيرة حين رأى بيتا حديثا تعلو بابه تعريشة جميلة ..

كانت النوافذ مغلقة بمصاريعها الخشبية ، ولم يكن هناك أى نور فى الطابق الأرضى ولا فى الطابق العلوى . ومع ذلك فقد كانت هناك هالة من النور حول السطح . وراح راوول يتحرك بدون صوت فدار بالبيت وتراجع بضع خطوات إلى الخلف ، وأدرك على الفور أن الضوء المبهم الذى يثير حيرته ينبعث من كوة فوق السطح ، ولاشك أن والد لوسيل قد أقام له مرسما، وعندما كانت الظروف تمنعه من

الذهاب إلى الصخرة الكبيرة كان يرسم لوحاته فيه . ولاريب أن أخاه كان في تلك اللحظة في المرسم يكتب أو يقرأ .

كان بيت الخزين يرتفع بجوار الجدار ، ولم يكن تسلق السطح يشكل أية مشكلة . وقد اجتاز راوول العقبة كالشبح، مستعينا بشجرة لبلاب قوية . ولم يعد أمامه إلا أن يتقدم حتى المرسم وهو يتوخى الحذر التام . وألقى نظرة وما كاد يفعل حتى تجمد مكانه .

رأى تحته رجلا عرفه على الفور.. خادم البارون .. ذلك الذى هدده بالمسدس . وكان يضع يديه في جيوبه ويدخن سيجارة وينظر إلى الجزء الذى لم يتمكن راوول من رؤيته بعد . كان لابد له لذلك أن يتقدم أكثر ، ولسوء الحظ كان القمر بدرا وكان من الممكن أن يعكس ظله على أرضية المرسم .. ولهذا تقدم بمنكبيه بضعة سنتميترات ، وكان كلما ازداد تقدما كلما اتسع المنظر تحته . كانت هناك كتب لصق الجدار . وفوق المنضدة مجلة لاتزال مفتوحة ، ولكن أين الفونس ؟

ولم يلبث أن رآه ، وتوترت ملامحه على الفور ، لأنه رأى الفونس موثق اليدين فوق مقعد والبارون جالسيران يقف مصوبا مسدسه نحوه . رأى كل شئ في وضوح وخيل له أنه يحلم ، وفي هذه المرة لم يكن راوول ممددا على صدره فوق الأرض الصلبة وإنما فوق سطح ، ولم يكن المجرمون يحرقون قدمى الضحية ولكن الأمر كان أسوأ .. كانت المسألة مسألة ثوان ، وكان من السهل أن يفهم كلمات البارون رغم عدم سمعها : واحد .. اثنان .. ثلاثة .. السر وإلا قتلتك .

كان فيرانج يحرك رأسه ذات الحاجبين الكثيفين التى تجعله يشبه هوبير . وكان يقول : لا .. خمسة .. ستة .. سبعة .. جالسيران يوشك أن يطلق النار وصعدت صرخة في حلق راوول : " كلا . إنك لن تقتله

أمام عينى بكل جرأة" .. وزحف أكثر.

وكانت كارثة ، فإن لوح الزجاج الذى كان يتكئ عليه انكسر فجأة . ولم يجد الوقت الكافى لكى يرتمى جانبا ثم يرتد حتى الجزء الصلب من السطح . ووقع لوح الزجاج فى المرسم وتفتت متناثرا فوق الأرض .. الهرب .. كان لابد من الهرب لاقصاء المجرمين عن فريستهم . وسوف يتفاهمون إذا ما بلغوا الأرض المكشوفة .. رجل ازاء رجلين .. كانت اللعبة غير متعادلة وهى معركة خاسرة مسبقا بالنسبة للبارون.. وفكر راوول .. ليتهما لايطلقان على الرصاص ، فمع أناس حمقى مثل هؤلاء يمكن توقع كل شئ .

وأسرع إلى سطح المخزن ، ورغم أنه كان واثقا من نفسه ومن سرعة قدرته على الارتجال فقد راح يلعن نفسه لأنه أتى من غير أن يأخذ معه سلاحا ، فإن المسدس الضخم الذى يحتفظ به سيد القصر فى درج مكتبه كان يمكن أن يساعده . وفى اللحظة التى لمست فيها قدماه الأرض سمع صيحة :

- من هنا .. فأسرع نحو الجدار وهو محنى الظهر .

ودوت طلقة خلفه فاعتدل واقفا وهو يسب ويلعن ، ووثب فوق الجدار ولكنه سمع هذه المرة الرصاصة ترتطم بالصخرة ، وعلى مقربة منه .. كان الريف يمتد أمامه مكشوفا والقمر بدرا ينير المكان بحيث أن راوول كان يرى خياله تحت قدميه كما لو كان الوقت نهارا . وأسرع نحو الصخور تشيعه رصاصتان أخريان وراح يفكر وهو يجرى : ليس فى مقدورهما اللحاق بى ولكن إذا أنا هربت فقد تصيبنى رصاصة .. لاتهرب .. لاتهرب .. آه يبقى حل واحد .. وحل واحد فحسب وانحرف نحو البحر، وإذ تأكد الآخران أنهما سيضيقان عليه الخناق فى الفضاء كفا عن إطلاق النار واهتدى على الفور إلى

الطريق المؤدى إلى الصخرة الكبيرة . وكان الرجلان يشقان طريقهما في المنحدر، فوقعا فى مشقة لوعورة الدرب ، وراحت الحجارة تتدحرج . وبلغ راوول البلاج . ومضى نحو البيت دون أن يسرع .

وصاح البارون : سلم نفسك ، فلا سبيل لك إلى الهرب . ووقف راوول على عتبة الباب ورفع يديه .. ووصل الرجلان وهما يلهثان بشدة ويشهران مسدسيهما فى عزم وقوة . وقال راوول :

ـ حسنا .. حسنا .. لقد ربحتما .

وكرجل مصمم على الحديث فتح الباب ودخل وتبعه الآخران .. وكان ضوء القمر يتسرب من خلال النوافذ .. ومع ذلك فقد أضاء الخادم مصباحه .

قال البارون :

ـ حسنا . لن يزعجنا هنا أحد .. إن لدينا حديثا طويلا ياصديقى العزيز فى أمور كثيرة .. اجلس .

ـ هذا لا يصح .. تفضل أنت أولا .

ـ قلت لك أجلس .. مفهوم يالوبين ؟

ـ مادمت تصر بهذه المجاملة التى تناسبك تماما ، فليكن .

وجلس راوول وعقد ساقيه فى غير اكتراث .. وأخذ البارون المقعد الآخر ، وقال فى خشونة : أنا الذى ألقى الأسئلة .

ـ كلا .

ـ ماذا ؟

ـ كلا .. فطالما لم يعد رجلك المسلح مسدسه إلى جيبه فلن أتكلم .

ـ سوف نرى .

ـ هذا قرارى .

ومرة أخرى خضع البارون لقوة عدوه فأتى بإشارة أخفى الخادم مسدسه على أثرها. وعاد راوول يقول :

ـ وبهذه المناسبة ، ألم يشترك رجلك الدميم فى الحفلة ؟ هل تركته فى البيت ؟ هذا إذا لم يكن مستقرا فى قاع السين .

وازاء توتر البارون أدرك راوول أنه لمس الوتر الحساس .. وتثاءب فى أدب ، خلف يديه ، ثم قال :

ـ ألست ظمآناً .. إن الجرى هكذا بعد العشاء يصيبنى بالظمأ .

صاح البارون : لن تشعر بأية رغبة فى أن تشرب فيما بعد .

ـ هذا جائز .. ولكن كأسان من الشمبانيا فى هذه اللحظة بالذات سيكون على الرحب.. هناك بضع زجاجات من الشمبانيا فى المطبخ .. قد لاتكون الخمر معتقة بما فيه الكفاية ، ولكن شيئاً أحسن من لا شئ .

وقال يخاطب الخادم :

ـ ألبس قفازك الأبيض وامض وائتنا بزجاجة .. سوف يسرنى جداً أن نتناول كأسا .

قال البارون وهو يضحك ضحكة ثقيلة :

ـ مادامت هذه رغبتك الأخيرة فلا بأس من الشمبانيا .

أزاح الخادم الستارة التى تخفى مدخل المطبخ وهو يقول :

ـ هل هى هنا ؟

أجاب راوول :

ـ نعم .. على اليسار مباشرة .. الزجاجات مرصوصة فوق المائدة

.. إننى أعرف ذلك ، فقد رأيتها .

وأردف يقول فى غير اكتراث لكى يثير اهتمام البارون :

ـ كان فى نيتى أن أنقل الشيخ برناردان هنا .. ولكن تصور أن ..

بدأ البارون يقول :

ـ آه .. هذا ما أريد أن أتحدث عنه بالذات .

قطع عليه الكلام قرقعة مفاجئة ، فقد ابتلع الشرك الخادم .. وهب البارون على قدميه وهو يقول يقول :

ـ ما هذا ؟ .. ماذا تصنع ؟

وأزاح الستارة ، ووقف مصعوقا وهو يرى الغرفة شاغرة .. ولم يترك راوول له الوقت لكى يعود من دهشته فأسرع نحوه ودفعه بقبضته إلى الأمام . ووجد البارون نفسه يندفع نحو الشرك ، واختفى بدوره وهو يصرخ .

وجفف راوول أصابعه بمنديله وهو يقول :

ـ أف ! .. إن التسليم من الباب للباب أمر مرهق .. إننى لاستحق حقا أن أتناول كأسا بعد هذه المشقة .

ودار بالباب القلاب ، والتقط فى طريقه المصباح الذى وقع من الخادم ودخل المطبخ .. وهناك ، ورغم توتره العصبى انفجر ضاحكا .. كلا .. إن هذا لأمر غير مصدق .. لقد صدق من غير أن يدرى .. كانت زجاجات الشمبانيا موجودة ، ولكنها لم تكن مرصوصة فوق المائدة وإنما على الأرض . كان هنا ست زجاجات.. آه يابارون ، هذه متعة ليس بعدها متعة واننى لأشكرك .

ولكنه كف عن المزاح على الفور .. هذه الزجاجات .. فكر فى وليمة الذكرى السنوية التى أعدها جاك فيرانج بكل الحب .. ووجد فى

الشمبانيا مذاق الدم . وعاد إلى الستارة فى صمت وأصاخ السمع .. كان يكثران من الحركة تحت قدميه .. وانحنى نحو الباب القلاب وصاح :

- لاداعى للتعب والإرهاق أيها الصديقان فلن ينجدكما أحد .. ولكن أنا أستطيع .. هل تسمع يابارون ؟ لايوجد هنا غير شخص واحد يلقى الأسئلة ، وهو أنا .. فأجبنى إذن .. ماذا كنت تطلب من الفونس فيرانج بكل تلك الرقة ، هيا .. تكلم ، فإننى بحاجة إلى النوم ، ولن أبق هنا طوال الليل .. كلا ؟ أعلم أننى لست بحاجة إليك .. سأعود إلى الكرمة وأنقذ ذلك الرجل العزيز وسوف يسره أن يخبرنى بما أريد .. إذن ؟ كلا ؟ حسنا .. كما تشاء .. فلنتكلم الآن عن الخطاب .. أنت تعرف .. خطاب انجلترا الذى يحمل طابع الملكة فيكتوريا .. فبما بيننا ، هو خطاب ثمين يطيب لهواة جمع التحف الحصول عليه .. إذا أعطيتنى إياه افتح الباب .

دوت طلقتان اصمتان رجتا الأرض ، وظهر ثعبان فى خشب الباب .. وقال راوول :

- حسن جدا.. أرى أن علاقاتنا مازالت على توترها بعض الشئ .. هذا أمر مؤسف.. ولكننى أحب مع ذلك أن أنبهك .. إذا كنت لاتعرف، فإن معكما رفاق فى القبو .. نعم .. هيكلان إذا تحسست الأرض فى رفق فسوف تجدهما، وصدقنى يابارون إنه ليس من مصلحتك أن توقظهما .

ساد صمت عميق ، وعاد راوول يقول : هل تحب أن أقوم بواجب التعارف ؟ جاك فيرانج وزوجته .. البارون جالسيران وشريكه .. ميتان تحت التنفيذ .

وردت عليه صرخة ذعر ثم ارتفع صوت البارون وهو يتهدج من

الانفعال . لست أنا .. لست أنا .. افتح .. افتح .

سأله راوول :

ـ من إذن ؟

ـ لا أدرى .. أقسم لك .

ـ أليس لديك أية فكرة ؟

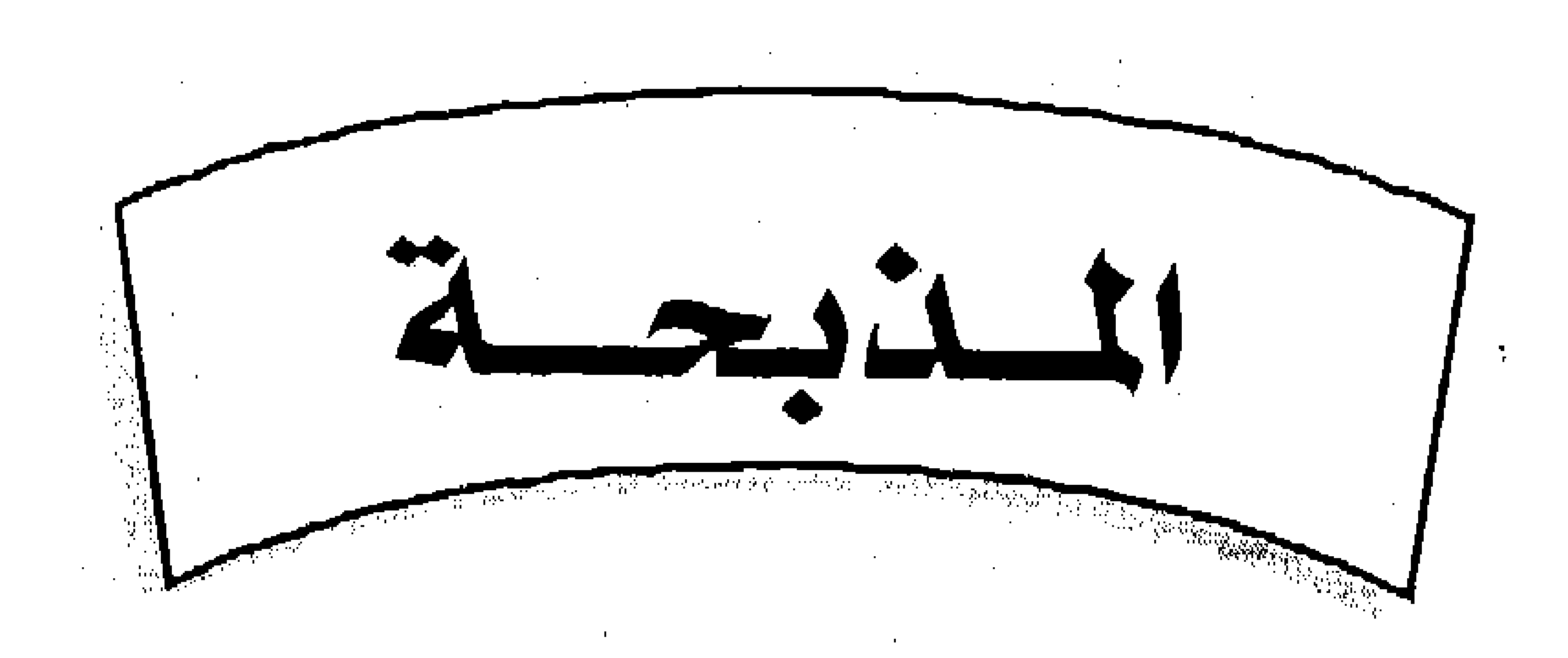
لم يأته أى رد .. ولم يزد راوول إصرارا فإن الليل سيكون خير ناصح للبارون .. وخرج وأغلق الباب فى عناية كبيرة .. وكانت الحصى تبرق تحت ضوء القمر حتى الأمواج الأولى التى تتلاطم فوق الشاطئ من بعيد .. وأحس راوول بالتعب ، ولكنه ما كان ليرضى بالراحة ولا حتى بالجلوس لحظة لكى يمتع عينيه بهذه السماء التى تتناثر فيها النجوم .. كان شغله الشاغل أن يسرع إلى الشيخ برناردان فى بيت فيكتوار .. وفكر .. البارون فى القبو .. والفونس موثق القياد فوق مقعده .. لقد كثر عدد الأسرى .. يجب أن أفتح سجنا قريبا .. وفى بطء صعد الدرب وهو يتوقف من لحظة لأخرى لكى يسترد نفسه مستمرا فى تأملاته .. لاريب أن البارون لم يكذب عندما قال أنه لايدرى من الذى قتل جاك فيرانج وزوجته ، ووقوعه فى الفخ دليل على أنه لم يكن يعرف شيئاً عنه . ولاريب كذلك فى أنه لم يشترك فى الاعتداء المدبر ضد لوسيل ولا ذلك الذى وقع للوصى على الفتاة هناك شخص آخر يعمل فى الظلام ، وهو يخطط لجرائمه بكل ذكاء ودهاء وينفذها فى غير رحمة ، فى الخفاء ، دون أن يعرف أحد شيئاً عنه .

سرت قشعريرة فى بدن راوول . كان يكره النضال فى الخفاء .. هذا الرجل الشجاع ، القوى .. الذى يعرف كل الحيل كان يخاف من كل من يضرب غدرا وخيانة ، ومن كل من يضع قناعا ويتقدم فى

صـمـت وسكون مـرفـوع الذراع كـمـا يـفـعل الأوغـاد والأوبـاش . وبلغ الشاطئ .. هيا .. جهد آخر يتكلم الفونس فيرانج ، فلا شك أنه يعرف شيئاً وإلا لما تعرض لاعتداء البارون .. لا أحد فى المكان .. لم يسمع أحدا صوت الطلقات .. لم يكن فى الجو غير زقزقة العصافير .. لا حاجة به الآن للوثب فوق الجدران وتسلق المخزن .. كانت كل الأبواب مفتوحة، فقد خرج البارون وشريكه مسرعين .. وأسرع راوول واجتاز البـهو الذى تغطى اللوحات جدرانـه ، حيث يقع فى آخر سلم صغير صعد درجاته فى طرفة عين ودخل المرسم .

كان الفونس فيرانج منهارا فوق مقعده وهو لايزال موثق القياد وقد اخترقت رأسه رصاصة .





المذبحة

وهكذا ضرب الوحش ضربته ، بل لعله لايزال فى البيت لأن جسد الفونس فيرانج كان لايزال دافئاً .. وابتعد راوول عن الجثة وهو يسحق تحت قدميه الزجاج فى صوت صاخب رغم حذره وحيطته .. ووقف فى ركن خفى لايمكن لأحد أن يراه منه سواء من الخارج أو من رأس السلم .. كان يجب أن يرسم خطة سريعة مفاجئة وأن يبادر بالهجوم وإلا فإن جرائم جديدة يحتمل أن تقع .. ومع ذلك فإن راوول لم يستطع أن يحول عينه عن الجسد الموثق القياد .. انتابه الحزن فإنه فى اهتمامه بنضاله مع البارون لم يخطر له أن "الآخر"يمكن أن يكون موجودا فى ساحة المعركة فى نفس الوقت .. وفى اللحظة التى اعتقد فيها أنه أصبح سيد الموقف إذا به يغلب على أمره بصورة نهائية وبطريقة مهينة ويقهره رجل أكثر منه حدة وذكاء .. رجل يتمتع بقسوة وضراوة ينتهز أهون الفرص للقتل .

تردد راوول فجأة وهو لايدرى أى تصرف يجب اتخاذه .. أذهلته المفاجأة وأحنقه إحساسه بأنه أقل من مسئول .. وقف جامدا لايتحرك ويداه فى جيوبه يحاول أن يحلل الموقف .. إنه أخطأ فى اشتباهه فى الفونس فيرانج . لم يكن هناك شك الآن فى أنه برئ .. ولكن مامعنى هذه المذبحة ؟ واضح الآن أن آل فيرانج يملكون سرا لايعرفونه وقد استولى البارون على مذكرات الكونت يونرفيل فى البداية لاكتشاف هذا السر.. وإذا لم تفده المذكرات فى شئ اختطف الشيخ برناردان ،

ثم حصل بالدهاء والحيلة على خطاب انجلترا ولكن الخطاب لم يفده هو الآخر مادامت نيته قد اتجهت إلى الاعتداء على الفونس ولعل ذلك بسبب كرمة القديس جان . كل هذا يبدو واضحا بما فيه الكفاية .. أما الشئ الغامض الذى لامعنى له ولامنطق والذى يزخر بالثغرات والمتناقضات فهو نشاط الآخر المخيف .. جريمتا الصخرة الكبرى والاعتداء المدبر على لوسيل والآخر الذى راح عمها هوبير ضحية له .. كلها فخاخ منصوبة ، ربما منذ أسابيع .. فماذا كل هذا البطء الذى يتسم بالمكر والخبث ، وماهى الغاية التى يسعى إليها المجرم على وجه الخصوص .. هل يريد أن يكتشف السر هو الآخر ؟ ولكن بأية وسائل ينوى الوصول إلى غرضه ؟ هل يعلم بأمر المذكرات ؟ والخطاب وكلمات السر ، تلك الكلمات التى اضطر برناردان إلى البوح بها تحت وطأة التعذيب ؟ وهل ذهب أبعد من البارون فى اكتشاف الحقيقة ؟ وإذا كان السر مازال مستغلقا عليه ، أفليس ذلك لأنه يقوم على أسس غامضة وعلى رموز عجز عن الاهتداء إلى حل طلاسمها ؟

وعاد راوول يقول :

- أما أنا فيجب أن أهتدى إليها .. ربما لاينقصنى غير نقطة واحدة فأنا لم أدرس العناصر التى أملكها بما فيه الكفاية .. ونسى المنظر الدرامى الذى يطالع عينيه ، وأسرع فأستعاد إلى ذهنه كلمات الشيخ برناردان وكلمات الأستاذ فرينيزو . ماذا قال موثق العقود ؟ "لماذا أصر الملك لويس فيليب ، وهو هارب ، على العودة إلى قصر يونرفيل فجأة متحديا هكذا خطر الموت ؟" كانت هذه العبارة هى الأخرى مفتاحا لحل اللغز ، فقد عاد الملك لسبب قهرى وقام بإجراء شهده ايفاريست فوتيريل الخادم الأمين ، أبو برناردان .. وقد انقرضت عائلة الكونت يونرفيل ولكن آل فوتيريل مازالوا على قيد الحياة ، ومن

هنا كان اختطاف الشيخ وتصرفات البارون تبدو معقولة ولكن لماذا اعتدى "الآخر" على آل فيرانج ؟ هنا الغموض من جديد .

تنهد راوول طويلا وبدأ كأنه يصحو . هل يفتش الجثة ؟ لكن ماالفائدة ؟ لو أن المسكين كان يملك شيئا ذا أهمية فإن العدو قد حصل عليه .. بيد أن راوول كان يملك ورقتين رابحتين ، وعليه الآن أن يلعب بهما ، والورقة الأولى هى البارون ، فبعد أن يمعن هذا الأخير التفكير والتروى فى حفرته ، وبعد أن يعلم أن الفونس فيرانج قتل فإنه سوف يدرك أن من مصلحته أن يتكلم ، ومهما يكن فسوف يحصل راوول على خطاب انجلترا ، ثم يبقى عليه بعد ذلك أن يحمل الشيخ برناردان على الكلام .

هبط راوول السلم القصير واسترد نفسه لثانى مرة ، وأحس بأن الحياة تحمله من جديد ، كزورق يرفعه ماء البحر شيئاً فشيئاً .. وقبل أن يغادر البيت ألقى نظرة خبير إلى اللوحات التى رسمها جاك فيرانج ومهرها بتوقيعه وتمتم يقول :

- أقل من المتوسط .. مسكينة لوسيل ! لم يكن أبوك يتمتع بأية موهبة فى الرسم .

وعندما هم بالخروج تمالك نفسه ومضى إلى المطبخ ، وأخذ بعض الخبز واللحم البارد :

- إذا أردت أن احملها على الكلام فلابد من إغرائها .

وابتسم لأنه كانت فى الردهة مرآة كبيرة عكست صورته ، وأومأ برأسه لنفسه مشجعا . لم تكن الساعة ساعة مزاح أو مداعبة ، ولكنه كان راض نفسه منذ وقت طويل على التغلب على مشاعره أمام الموت .. وعاد إلى طريق "الصخرة الكبيرة" وبحركة آلية اقتطع كسرة من الخبز وأخذ يأكلها وهو مسرع . وكان منظرا مذهلا أن ترى هذا

الموظف البسيط الذى يرتدى جاكتة فضفاضة من الجوخ وهو يأكل على ضوء القمر ويضم إلى صدره طبقا من اللحم وبعض الخبز ويخاطب خياله المفرط الطول الذى يصاحبه فى سيره .

"مساء الخير يادون كيشوت . يسرنى أن ألتقى بك ، فأنت لم تظهر إلا فيما ندر ، منذ بعض الوقت .. هل تسمح أن أغذيك قليلا فإننى لم أرك أبدا بمثل هذا الهزال .. ذلك إنك لقيت منهم الكثير .. آه .. ليس غريبا أن تدافع عن اليتامى كل يوم ، فهذا يضرب ذات اليمين وذاك يضرب ذات الشمال . ولكن اعترف انك لن تكون أنت نفسك إلا إذا لفظ الجحيم أبالسته السوداء عليك . تعالوا أيها الأبالسة لكى أمزقكم اربا .. هذه الفطيرة لذيذة .. ذقها واستمتع بالحياة .. انهما فى انتظارى .. امض . كلا ، أنت على عجل دائماً تصور أننى أيضاً مثلك .. حذار ، فقد تقع على أم رأسك .. هاهو طريقك" .

واندفع راوول فى الدرب الضيق ووقف أمام الكوخ .. لم يكن يقطع الصمت غير دوى الأمواج البعيد . ودخل ، وقال :

- مساء الخير أيها الصديقان . لقد أتيتكما ببعض الطعام .

وجبة صغيرة تسندكما شيئاً ما .. فى مقدوركما أن تشكرانى على الأقل ماذا ؟ أغاضبان أنتما ؟

وفى حركة خرقاء فتش فى جيوبه بحثا عن المصباح الكهربى دون أن يتخلى عن الطعام . وأضاءه أخيراً وأزاح الستارة وأفلتت من بين شفتيه سبة كان الفخ مفتوحاً وطرق السلم يبرز منه .. لقد هربا .. طارا .. ولكن من الذى خلصهما ؟ من "الآخر طبعا".. فلابد أنه كان يراقبه وأسرع إلى الكوخ بمجرد أن رآه يغادره .. وألقى بالخبز والطعام على المائدة وعاد إلى القبو وبث ضوء المصباح داخله .

وأخذته غصة على الفور، فقد كانا موجودين .. كانا ملتصقين

بالسلم ورأس كل منهما ماتزال مرفوعة إلى أعلى ، وكانا ملوثين بالدم وقد تجمدت عيناهما رعبا وذعرا .. أصيب كل منهما فى مقتل وفاضت روحه على الفور .

ورأى راوول بعين الخيال رغما عنه تلك اللحظة الأخيرة .. السلم يقلب باب الفخ والبارون يسرع قبل خادمه ولكن اليد المسلحة تظهر فجأة ، وتنطلق الرصاصتان تتبعهما حشرجة الموت ثم الصمت المطبق .

لم تعد لراوول القدرة على التحرك .. لم يخطئ حين خطر له أن البارون ورجاله ما هم إلا شركاء للوحش .. لقد لعب البارون دوره الأخير وخسر . أما "الآخر" فبعد أن تخلص من الفونس فيرانج تابع عملية الموت فى القبو ولم يعد أمامه إلا أن يهبط لكى يأخذ خطاب انجلترا من جيب القتيل .. والآن ؟

بعد استبعاد البارون يبقى الغريمان وجها لوجه .. راوول وشبح من المتعذر إمساكه .. شبح موجود فى كل مكان وغير موجود .. يضرب تارة فى بطء بحذق غادر وأخرى بوحشية وبسرعة الكوبرا .. واخترقت فكرة مخيفة ذهن راوول فجأة .. برناردان .. مادام "الآخر" يعرف كل شئ ، ومادام يسبق غيره كما لو كان يقرأ أفكار خصمه فلعله يعرف الآن مكان الشيخ العجوز ! ولعله فى هذه اللحظة بالذات .. كلا .. لو حدث هذا فإنه ليكون أمرا فظيعا .. ولام نفسه لقضائه اليومين الأخيرين من غير عمل بجوار لوسيل الفاتنة .. ما كان يجب أن

وانتصب راوول واقفا ضاما قبضته وهو يغلى من الغضب .. يجب أن يسرع بالعمل وأن ينقض على الآخر انقضاض الصاعقة وأن يدبر وسيلة للدفاع قبل أن يفوت الأوان .. واندفع خارج البيت ومن الهزيمة

برز رجل المناسبات العظيمة الذى لايمكن أن يوقفه شئ .. وأسرع نحو قمة الشاطئ حيث ترك السيدكار . وأدار المحرك وجلس على مقعد القيادة ، واندفع الموتوسيكل فى دفعة غاضبة . كلا .. لايمكن أن يكون الوقت قد فات "الآخر" لايملك وسائل خارقة . ولكن لعله يستخدم سيارة .. إذن .. إن المسألة الآن مسألة مسألة سرعة ، وهى مباراة كان راوول واثقا من كسبها .

راح الموتوسيكل ينطلق بأقصى سرعة وراوول يهتز فوقه بشدة ولحسن الحظ كان ضوء القمر يملأ الطريق بنوره لأن السيدكار لم يكن مزودا بأية مصابيح ، وساقه راوول كيفما اتفق وهو يضغط على أسنانه وريح السباق تجمد العرق فوق جبينه . واندفع أكثر من مرة فوق العشب وأوشك أن يقع ، ولكنه كان يعود إلى الطريق فى إصرار ويندفع فى جوف الليل .. وعندما رأى بيت فيكتوار الأبيض من بعيد لم يكن قد التقى بأحد ولم يسبقه أى أحد .. وكان وحده تماما ، وكان واثقا من أنه وصل قبل "الآخر" .. وضغط على الفرامل بشدة بحيث انزلق الموتوسيكل ودار به دورة كاملة ولكنه لم يعبأ بذلك ومضى نحو باب الحديقة وهو يترنح .. كان من الجنون أن يتملكه الخوف هكذا .. هل كان يترك العنان للخوف لكى يستولى عليه هكذا فيما سبق ؟ ولكنه لم يكن خوفا ، وإنما كان حرصا وحذرا . بل لعله إفراط فى الحرص والحذر ، وهو قد تصرف حتى الآن تصرفا أهوج وبدون ترو حقا ، ولهذا عاهد نفسه وهو يدفع باب الحديقة أن يضاعف الحراسة بعد ذلك . وطرق باب البيت ثلاث مرات وهو ينتظر أن تفتح فيكتوار النافذة لأن نومها خفيف ، وتلقى إليه بالمفتاح .

صاح فى صوت خافت :

- فيكتوار .. فيكتوار .. افتحى لى ، وضاعف القلق خوفه وجف

حلقه .. فيكتوار .

وتأهب لكى يحطم الباب وهز الأكرة فى غضب ولكنها دارت فى يده بسهولة وانفتح الباب .. لم يكن موصدا بالمفتاح .

ـ عجباً !

وأضاء مصباحه وأسرع يرتقى السلم فى غير حذر .. كانت فيكتوار ممددة فوق فراشها موثقة اليدين ومكمه وفوق عينيها عصابة . ولم يفكر راوول فى أن يضيع الوقت فى تخليصها وإنما اندفع إلى الغرفة المجاورة .. كان برونو هو الآخر موثق اليدين والقدمين وفى فمه منديل .

ـ يا للشيطان !

وأفلتت قدمه إحدى الدرجات وكاد يقع لو لم يتشبث بالدرابزون .

وكبا على ركبته ونهض وهو يعرج .. واندفع إلى غرفة برناردان .. كان المزلاج قد رفع من مكانه فدفع الباب بركلة من قدمه .. كانت الغرفة خالية واختفى العجوز .

أحس بالإعياء وتهالك فوق الفراش وأخذ رأسه بين يديه .. لم يكن هناك شك الآن فى أن الآخر قد عرف السر، فهو يملك الخطاب وبرناردان .. ولكن ما هو السر الذى مات بسببه كل هؤلاء الضحايا .. وعصف الألم براوول ونزف قلبه دما وأحس بحاجته إلى أن يلوذ بجوار فيكتوار ، ومضى فقطع قيودها وأزال الكمامة عن فمها ودفن جبينه فى صدرها .

ـ فيكتوار .. عزيزتى فيكتوار ..

وبقى جامد الحركة مدة طويلة كما أنه أراد أن يستمد من صدرها قوة جديدة ، ولزمت فيكتوار الصمت ولم تفكر فى الشكوى وذراعها

حول عنق ذلك الذى ربته وأطعمته وملأ حياتها صخبا ومأس .. ورفع رأسه أخيرا وقال :

- ماذا حدث ؟

- ولكننى لا أدرى . كنت فى المطبخ ، وسمعت حركة خلفى ، وحسبت أنه برونو فلم التفتت ، وأحسست بشئ يوضع حول رأسى وتملكنى الخوف وفقدت رشدى على الفور .. وعندما عدت إلى الوعى وجدت نفسى هنا موثقة اليدين والقدمين كما وجدتنى .

- متى حدث هذا ؟

- حسنا .. قبيل الغداء .. كنت أعد عجة لأن برونو يحبها مثلك .. وكان فى الحديقة يجمع لى بعض البصل .. ولكن ماذا حدث له .

- إنه فى الغرفة المجاورة موثق هو الآخر .. ولاريب أنه يجد الوقت طويلا . انتظرينى هنا ياعزيزتى فيكتوار .. سآتيك به .

ومضى راوول فقطع قيود برونو التعس ، ونزع المنديل عن فمه .

- آه .. أهذا أنت أيها الزعيم ؟ ولكن العجوز .. ماذا حدث له ؟

- اختطفوه .

- هذه غلطتى أنا .. كان يجب أن أحترس ، ولكن كان كل شئ هادئا . ثم كنت أعرف إنك قريب .. كنت فى الحديقة وتلقيت ضربة على رأسى .

- ألم يتكلم برناردان ؟

- هو ؟ .. إنه أشد عنادا من البغلة .. ولا حتى صباح الخير أو مساء الخير ..

- سوف يتكلم الآن . سوف يعمل خاطفه على ذلك مادام لم يقتله كما .. توقف راوول .. لاحاجة به لأن يطلع برونو على مجرى

الأحداث ، فهو قد عانى الكثير حتى الآن .

- إننى آسف يازعيمى .. آه .. وإننى لغاضب من نفسى .. غاضب جدا .

- لا عليك ياصغيرى .. ليس الذنب ذنبك ، إذا كنا قد وقعنا على شيطان حقيقي .. بل إنك محظوظ ، فقد كان في مقدوره أن يقتلك أنت أيضاً ، وانني أتساءل لماذا لم يقتلك .

وضغط بشدة على ذراع برونو ثم قال :

- وهذا هو الأمر الذى يخيفنى ويثير حيرتى .. هناك منطق لا أفهمه .. إن نقطة الضعف عند الذين تغلبت عليهم حتى الآن هى أنهم يفكرون مثلى ، ولكننى أفكر أسرع منهم .. أما هو فإنه يحيرنى .

- وفيكتوار ؟

- اطمئن .. إنها بخير .. أصابها من الخوف أكثر مما أصابها من الضرر .. إن هذا الوحش يعرف كيف يمتنع عن الأذى عندما يريد .. تعال لكى تراها .

ومضى به إلى غرفة فيكتوار ، وكانت المرأة العجوز قد استردت قواها ، وقالت تخاطب راوول :

- أرح قلبى وطمئنى ياحبيبى .. ألن تكف أبداً .. ألست غنيا بما فيه الكفاية ؟

أجاب راوول فى اكتئاب :

- ولكننى لا أسعى وراء المال ولا وراء المجد ولا وراء أى شئ .. أننى أذود عن نفسى فحسب .. سوف تبقين هنا يافكتوار ، وأعدك أنه لن يقع لك شئ بعد اليوم .. أما أنت يابرونو فعد إلى باريس .. وإذا احتجت إليك فسأبعث فى طلبك .

حسنا أيـها الزعيم ، ولكن لعلك لا تطردنى ، فإننى مـازلت جديرا بأن أخدمك .. لو أنه لم يضربنى من الخلف .

وراح يدعك رأسـه فى تفكيـر : عندمـا أفكر أننـى لم أسـمـعـه وهو يقترب منى .

قالت فيكتوار :

ـ هل تريد فنجانا من القهوة ؟

ـ نعم .. وأشكرك ياعزيزتى فيكتوار .



من إصدارتنا ....

سلسلة روائع القصص البوليسية (هتشكوك)

الياقوتة
اليد المقطوعة
الميت الحى
مسرح العرائس
ذو الوجهين
رصاصة فى الظلام
السفاح
المقبرة
الأنتحار
اليوم المشئوم

مجموعة قصص (أجانا كريستى)

القضية المستحيلة
النظرات القاتلة
رحلة إلى المجهول
الحب الذى قتل
جزيرة المهربين
المؤامرة الكبرى
الأفعى
جريمة ممثلة
أبواب القدر
المتهمة البريئة
مغامرات بوارو
التضحية الكبرى
جريمة فوق السحاب
جريمة فى العراق
الساحرة
اللغز المثير
سر التوأمين
اختطاف رئيس الوزراء
العميل السرى
سر الجريمة
القضية الكبرى
الجريمة الكاملة
قتيل فى المترو
ذكريات

أدلة الجريمة
القاتل الغامض
الرسائل السوداء
عدالة السماء
المتهم الصامت
الذئب
شرخ فى المرآة
زملاء الشر
المغامر
لغز الهاربان
المطاردة القاتلة
لغز أختفاء المليونير
الضحية الثالثة
الصوت الغامض
القناع الزائف
الحلم الرهيب
رجل بلا قلب
صرخة فى الليل
خيوط العنكبوت
تحدى العظماء الأربعة
جريمة فى البحر
المرأة الغامضة
لغز الألغاز
الرجل الخفى
وجهاً لوجه
جريمة الكوخ
كأس السم
الرعب القاتل
دائرة الخطر
الغرفة السرية
الشبح القاتل
رجل يتحدى بوارو
سر المرأة المقنعة
الجريمة المعقدة
الرصاصة الأخيرة
الشاهدة الوحيدة
المأسة العجيبة
بيت الأسرار
شبح من الماضى
الساحرات الثلاثة
الوثيقة السرية
الجريمة المزدوجة

سلسلة أرسين لوبين (أروع الألغاز البوليسية)

(روايات عالمية)

بائعة الخبز	نشيد الثورة
محاكم التفتيش	الرجل الضاحك
كوخ العم توم	مارى أنطوانيت
الكونت دى مونت كريستو	قصة مدينتين

سلسلة الأثارة والرعب

لعنة أبدية

الكابوس

قلعة الجبل الأسود

نشوة الجحيم

المعتقل

معانقة الفزع

قرية الخوف

سلسلة دراكيــولا

دراكيولا

دراكيولا ابن القمر

دراكيولا مصاص الدماء

دراكيولا قرية الخوف

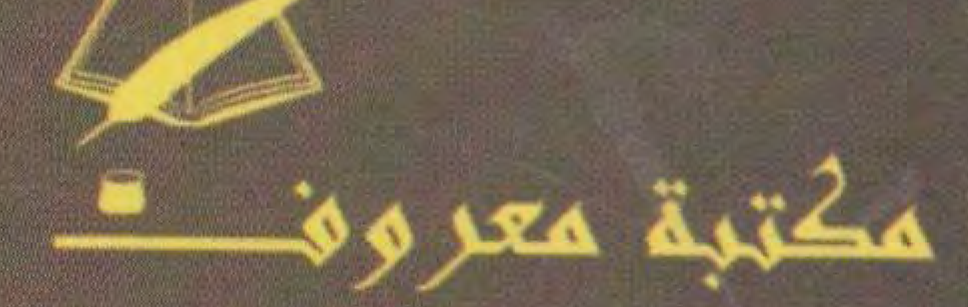
●●●

أشهر القصص اللصوصية

مغامرات اللص الظريف أرسين لوبين صاحب الشخصية العجيبة والمغامرات الخارقة التى بهرت الملايين فى أنحاء العالم ،،

لغز القصر المهجور	اللص الظريف
عودة أرسين لوبين	سر عقد اللؤلؤ
غريم أرسين لوبين	إمرأة أرسين
السرقة العجيبة	الشبح القاتل
الجائزة الكبرى	نو الوجهين

رقم الإيداع الدولى
977-267-241-7
كتاب رقم 2705



الإسكندرية: ٤٨٤٦١١٢٥/٩٥٤٥٥١٩ / فاكس: ٤٨٦٠٠٨٩
القاهره : ٠٢٢٤٠٣٧٧٩٢ -٠١٢٧٨٥٦٦١١٣
E-mail:maarouf2004@hotmail.com
www.maaroufbookshop.com
info@maaroufbookshop.com

الملكة ا
مكتبة
ت : ٠٧
orary@hotmail